د. محمّد بهيّ الدّين سالم

ابن باديس

فارس الإصلاح والتّنوير

دار الشروق

ابن باديس

فارس الإصلاح والتنوير

الطبعـة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقدمة

أولا ؛ أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمد بهى الدين سالم - مؤلف الكتاب - على هذا الإنجاز الفكرى الثرى لجهد عالم من علماء النهضة الإسلامية فى العصر الحديث ألا وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس، مفجر النهضة بالجزائر.

إن كتاب الأستاذ محمد بهى الدين سالم يعد شعاعًا من أشعة الشمس الساطعة يظهر فى فترة ضبابية تسود الآن، ويريد البعض منها تشويه الدين الإسلامى.

ولمواجهة هذا التحدى الكبير، يجب علينا أن نرجع إلى الرواد الأوائل الذين حاولوا فى مطلع هذا القرن، أن يجددوا الفكر الإسلامى فى مصر؛ أمثال محمد عبده ورشيد رضا، وعلى عبد الرازق، وفى الجزائر ابن باديس، فارس الإصلاح والتنوير.

فالإصلاح كلمة أصيلة تدعو إلى التغيير نحو التقدم مع الحفاظ على الأصالة والجذور.

وهذا الكتاب هو مكسب لكل مسلم حريص على دينه، يجب أن يقرأه لأنه يسلط الضوء بنظرة إيجابية على حياة وجهد عالم من علماء النهضة الإسلامية فى الجزائر الذى قال «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب».

الأستاذ الدكتور محمد بهى الدين سالم ينقل لنا فهمه لسلوك وفكر ابن باديس الذى يرتكز على نظرية الوسطية فى الإسلام، والتى قاوم بها الشيخ ابن باديس عدوَّين فى آن واحد.

أولا: الجهل وضعف الثقافة الدينية الصحيحة المشجعة على استيعاب التقدم والتحديث.

ثانيا: الاستعمار الذى حاول مسخ الهوية الجزائرية.

إن المعركة التى قادها ابن باديس تعنينا جميعا، وقد وقعت فى ظروف غير التى نحن فيها الآن، وهذا ما أدركه صديقى الأستاذ الدكتور محمد بهى الدين سالم.

إن الشعب الجزائرى العربى المسلم يقدر هذا الإنجاز العلمى والتاريخى الكبير، الذى يتناول بأمانة علمية ودقة المنهج الإصلاحى لابن باديس، ويبين أن الإصلاح كان بمثابة ثورة.

حقا؛ إن العلامة الشيخ ابن باديس يوجه فكره إلى عالمه الإسلامى، عكس ما يفعله البعض. فهو يحترم الرأى الآخر وبالأخص المدرسة الصوفية ويعلم أن منهجها روحانى لا يتناقض مع فكره الإصلاحى، وقد سبقه فى ذلك الأمير عبد القادر أبو المدرسة الإصلاحية المتفتحة مع المدرسة الصوفية الملتزمة بالدفاع عن الأصالة والهوية الوطنية.

وأخيرا أجدد شكرى مرة أخرى لمؤلف الكتاب على هذا الإنجاز المهم الذى يضاف إلى مكتبة الفكر الإسلامى عن مدرسة الشيخ عبد الحميد بن باديس تعزيزا لمفهوم الإسلام المستنير الداعى إلى التقدم والرقى.

د. مصطفى شريف
سفير الجزائر بالقاهرة والمندوب
الدائم لدى الجامعة العربية
وزير التعليم العالى بالجزائر سابقا

إهـــــداء

بسم الله الرحمن الرحيم، عليك توكلت، وإليك أنيب، وأنت أحكم الحاكمين.

فى العمر أيام لا تنسى لما فيها من ذكريات تحمل العديد من المواقف التى تشكل شخصية الإنسان، وربما تغير مجرى حياته وتطلعاته المستقبلية.

من بين هذه الأيام قضيت بوطنى الثانى الجزائر الحبيب فترة من شرخ الشباب، أحلى أيام العمر، أحسست خلالها أنى لم أنتقل من وطنى الأم (مصر الكنانة) إلى أرض تبعد عنها آلاف الأميال. . . لم؟ لأنى شعرت أنى بين أهلى وعشيرتى ليس بينى وبينهم شعور بالغربة أو اختلاف فى الدين واللغة أو العادات والتقاليد، أناس طيبون، طبيعة خلابة، لم يغير المستعمر الغاصب جوهرهم، عروبتهم، إسلامهم رغم أنه جثم على صدورهم مائة واثنين وثلاثين عاما حاول خلالها القضاء على هويتهم - ولكن دون جدوى.

طبيعة خلابة معطاءة توحى باللانهاية من عمق التفكير فيما وهب الله سبحانه هذه البلاد من خيرات ونعم.

ثم يد الرجال تعيد بناء ما خلفه المستعمر من دمار، وتزرع الأرض التى أهملها - عامداً حتى يحرم أهلها من خيرها، وتبحث فى باطن ترابها ومياهها عن معادنها، وخاصة (البترول) الذى قيل عنه إنه مخلوط بدم المجاهدين من أبناء الجزائر.

نهضة وعمل دءوب فى كل الميادين بقصد تعويض سنوات الاستعمار والقهر التى كانت حصيلتها فوق الدمار دماً وأرواحاً أكثر من مليون شهيد.

وأما التعريب فذلك وحده (قصة) وكنت هناك ضمن العاملين بالمؤسسات التعليمية المختلفة، وَفدْنا من أغلب البلاد العربية للمشاركة فى إعادة الوجه العربى المسلم للقطر الجزائرى الشَقيق.

سبع سنوات متصلة أقدم جهدى المتواضع فى الميدان التربوى .

وكيف أنسى وولد لى على أرضها وتحت سمائها (حسام ـ وبسمة) أرى دائما فى وجهيهما صورة هذه الأيام الطيبة ، وشعب الجزائر الكريم المضياف والعلاقة الوطيدة التى ربطتنى بعدد كبير من أبناء الجزائر العاصمة ، داخل وخارج العمل .

من هذا المنطلق أهدى هذا العمل خالصًا لوجه الله ، ورمزًا لحبى وتقديرى واعتزازى للجزائر فردًا فردًا . . أرضًا وسماءً ، وماءً ، وسيظل هذا الوفاء ـ إن شاء الله ـ إلى أن ألقى الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [سورة الرعد الآية ١٧] .

د / محمد بهى الدين سالم

القاهرة فى ١٢ من ربيع الأول ١٤١٨ هـ

الموافق ١٧ يوليو ١٩٩٧ م

فاتحة القول

نستفتح بسم الله الرحمن الرحيم، ونصلى ونسلم على المصلح الأول، نبىّ الهدى والرشاد رسول المحبة والسلام محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه.

أخى القارئ العزيز، لعلك تتفق معى على أن كل عمل جيد يسبقه ـ لابد ـ دراسة جدوى تحدد مدى نجاحه، وبلوغه الهدف المرجو منه، والعمل العلمى ـ بصفة خاصة ـ يسبقه الكثير من القراءات إلى أن يقتنع الكاتب أو الباحث بجدوى ما يكتب، وبالفائدة التى يأمل أن يجنيها القارئ، وبالأخص الموضوعات التى تتعلق برموز الإصلاح والتنوير الذين لهم بصمات وشأن فى أوطانهم، الأحياء منهم والأموات.

من هذا المنطلق فكرت أن أعرِّف بفارس من فرسان الكلمة المؤمنة الصادقة، ألا وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس، والحديث عن ابن باديس إنما هو حديث كفاح أمة بأثرها، فهو مصلح دينى، ومعلم قدير، ومفت مجتهد، وأديب عملاق، وصحفى ذائع الصيت، ثم مفسر واسع الاطلاع، له تجليات فى تفسيره لآيات الذكر الحكيم.

وهو ـ أيضا ـ رمز من رموز التنوير فى وطنه الجزائر والأوطان العربية والإسلامية الأخرى.

لذا عزيزى القارئ وضعت نصب عينىّ مكانة ابن باديس المميزة، وعلمه الواسع المتعدد الجوانب، وتضحياته، من أجل تحرير وطنه من يد المستعمر الغاصب.

وأيضًا حبى لوطنى الثانى الجزائر الحبيب، ولا أبالغ إن قلت إنى قرأت الكثير أو كل ما كتب عن ابن باديس فترة وجودى بالجزائر، وإلى أن هممت أسجل هذه القراءات، واخترت عنوانا لهذا التعريف: «ابن باديس فى مرآة التاريخ» لكنى عدت فرأيت أنه من الأنسب، ومراعيا لمقتضى الحال أن يكون العنوان: -

«ابن باديس، فارس الإصلاح والتنوير».

قسمت العمل إلى عدة أبواب تحت كل باب عدد من المحاور:

الباب الأول: التمهيد

* الجزائر العربية المسلمة.
* الفتح العربى والدين الإسلامى.
* التعليم العربى واللغة العربية.

***

الباب الثانى: عبد الحميد بن باديس

* مولده ونشأته.
* رحلته إلى الحجاز وأقطار المشرق العربى.
* العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته.
* مجهوداته ومكانته.
* وفاته.

***

الباب الثالث: دراسة وتطبيق

* ابن باديس الخطيب.
* ابن باديس المصلح والمربى.
* ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى.

***

الباب الرابع: الإصلاح فى مرآة التاريخ الجزائرى

* واقع الجزائر وثورة الإصلاح.
* عوامل ظهور حركة الإصلاح الدينى.
* عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح.
* دعوات الإصلاح تلتقى [الأفغانى ـ محمد عبده ـ رشيد رضا ـ ابن باديس].

الباب الخامس: مفهوم التربية عند ابن باديس.

* مقترحاته لتغيير المنهجية فى التربية والتعليم.
* مجهوداته التعليمية.

* المحاور التعليمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء.
* موقف الاستعمار من مجهودات ابن باديس.
* التربية الأخلاقية عند ابن باديس.

***

الباب السادس: القيم عند ابن باديس

* الحكمة.
* النزعة العقلانية والأخلاقية.
* النزعة الإنسانية والجمالية.
* تكريم العقل.

***

الباب السابع: جوانب من أعمال ابن باديس وآثاره

* [أقوال - مقالات - فتاوى - تعريف بالرجال - إلى جانب نماذج من تفسيره فى مجالس التذكير].

وبــعــد،

عزيزى القارئ أسأل الله جل فى علاه أن أكون قد وفقت فى تسجيل انطباعاتى - المختصرة - حول جوانب من فكر وآثار ابن باديس من خلال مصادرها الأصلية، واجتهادات من سبقونى بالكتابة عنه؛ تأليفا أو إعدادًا أو جمعا لآثاره.

ولعل جهدى - المتواضع هذا - يعبر عن مدى حبى وتقديرى لرمز من رموز التنوير، وما كان له من فضل فى إصلاح أمته بما قدم من أعمال وتضحيات ستظل باقية أبد الدهر، فالعظماء لا يموتون أبدًا فأفعالهم وآثارهم تخلدهم وتجدد ذكراهم.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات الآية ٥٥].

هذا وبالله التوفيق ،،،

البـاب الأول

التمـهـيـد

- الجزائر العربية المسلمة.
- الفتح العربى والدين الإسلامى.
- التعليم العربى واللغة العربية.

التمهيـــد

الجزائر العربية المسلمة

قبل أن نتحدث عن فارس الكلمة المؤمنة الصادقة الهادفة؛ الشيخ عبد الحميد بن باديس، ذلك الرمز المميز من رموز الإصلاح الدينى لا فى الجزائر وحدها ـ حيث ولد وعاش، وكانت دعوته الإصلاحية ـ وإنما فيما اشترك مع الجزائر من أوطان عربية إسلامية فى الكفاح ضد الاستعمار، وفوق هذا وقبل هذا فى وحدة الدين واللغة والآمال فى حياة حرة كريمة، ترفرف عليها رايات المحبة والسلام النابعين من قيم ومبادئ إسلامنا الحنيف.

لذا.....

كان لزامًا أن نبدأ الحديث بإلمامة مختصرة تؤرخ للقطر الجزائرى.. اسمًا؛ دينًا؛ لغة من خلال الفتح العربى، وكفاحه لتمكين اللغة العربية والدين الإسلامى بين أبنائه.

** لماذا أطلقوا على هذه الأرض الشاسعة الغنية الممتدة من بين حدود تونس شرقا، والمغرب غربا اسم «قطر الجزائر» وهل هذا القطر مؤلف من مجموعة من الجزر البحرية حتى استحق هذا الاسم؟

وللإجابة عن هذا السؤال يقول المؤرخون:

إن هذا القطر كان يدعى فى التاريخ العربى القديم «المغرب الأوسط» إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية، حين تدخل الأتراك العثمانيون فى أمره استجابة لطلب أهله، وساعدوا على إنقاذه من السقوط تحت ضربات الاستعمار الإسبانى الفتّاك بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس.

وجمع الأتراك العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة، اتخذوا عاصمة لها بلدة صغيرة ذات موقع جغرافى ممتاز تتوسط الساحل كأنها

درة تاجه تدعى (جزائر بنى فرغنة) لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها، تستعملها لحماية سفنها، والدفاع عن ديارها ضد غارات الأعداء.

وأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون تلك المدينة وينشئون بها الدور والقصور إلى أن تفخمت وأصبحت من أكبر المدن الإفريقية قاطبة وصارت تدعى (مدينة الجزائر) ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التى تدين لحكمها.

وهكذا نشأ فى مستهل القرن السادس عشر القطر الجزائرى مع نشأة العصر التاريخى الحديث فى العالم(١).

وسكان الجزائر قديما هم من جنس البحر الأبيض فى الشمال، والجنس الزنجى فى الجنوب . . . هاجر إليهم البربر حوالى الألف الرابع قبل الميلاد من الشرق الأدنى، وفى فجر التاريخ ازدادت الصلات التجارية بين سكان شمال إفريقية وجيرانهم من سكان البحر المتوسط وتلت الهجرات التجارية الهجرات الاستعمارية، وما ترتب عنها من جلب العبيد.

ثم جاء العنصر العربى بشكل منظم بعد الفتح الإسلامى ليتم لهذه المنطقة خاصيتها البشرية، وبمرور الزمن زالت الفوارق البشرية بين أهل الشمال والجنوب، وبين سكان التل وسكان الصحراء، وبين السكان الأصليين والمهاجرين، وظهرت عادات متحدة وتقاليد واحدة ودين واحد ومستقبل واحد بين جميع المتساكنين. فلهذا لا يمكن أن نقول إن هناك فوارق بشرية ما زالت قائمة فى شمال إفريقيا عموما، ولا حواجز عنصرية، بل اندثرت الفوارق منذ زمن بعيد، أزالتها المخالطة والمصاهرة رغم محاولة الاستعمار الفرنسى طيلة ١٣٢ سنة إذكاء نار الفتنة والشقاق بين العرب والبربر والزنوج حيث سلك سياسة « فرق تسد» غير أن سكان الجزائر من عرب وبربر وزنوج قد أدركوا هذه الحيل الاستعمارية وعرفوا أنه ليس هناك فرد واحد احتل فى القديم وحده منطقة محدودة من العالم ثم توالد إلى أن كوّن دولة معروفة باسمه الآن ولكنهم خليط من عناصر مهاجرة وحد بينها التاريخ(٢).

ومنذ نحو ثلاثة عشر قرنا والبلاد الجزائرية بلاد إسلامية دينا، عربية لغة، وإذا كان يوجد فيها أقلية ضئيلة من أصحاب الديانات السماوية الأخرى فإن هذه الأقلية لم تكن

---

(١) هذه هى الجزائر ـ أحمد توفيق المدنى ـ ط النهضة المصرية ١٩٥٦م.

(٢) جغرافية الجزائر ـ حلمى عبد القادر ـ ط الإنشاء ـ دمشق ١٩٦٨م

تزيد على ما كانت عليه فى أى بلد إسلامى آخر، ظل أهل الكتاب محتفظين فيه بدينهم بعد الفتح الإسلامى أو التجئوا إليه ليجدوا فى كنف المسلمين الراحة، ولكنهم كانوا منصهرين فى مجموعة الأمة الإسلامية.. هكذا كان شأن الجزائر منذ قرون، ولا عبرة فى ذلك لوجود أقلية كبيرة أو صغيرة بربرية فى البلاد لأن هذه الأقلية سواء أكانت تعرف العربية إلى جانب البربرية أم لا تعرفها فإنها تعتبر نفسها عربية من حيث الجنسية؛ لأنها كانت تشترك مع الأكثرية العربية فى المشاعر والعقائد، حتى لينعدم كل فارق بين الفئتين.

وقد ظل الجزائريون فى العهد العثمانى محتفظين بالصبغة العربية إلى حد بعيد؛ لأن السيطرة التركية لم تكن إلا سيطرة اسمية، ولم يكن يوجد فى البلاد كلها إلا بضعة آلاف من الجنود وبضع مئات من الضباط العثمانيين، وكان اختلاط رجال الجيش بالسكان الأصليين قليلاً، وكانت لغة البلاد هى اللغة العربية، وبدليل أن صك الاستسلام كتب بالعربية ولم يكتب بالبربرية ولا بالتركية، على أنه لو كان كتب بالتركية لما نفى العروبة عن الجزائر لأن الوالى كان تركيًا.. فكيف به وقد كتب بالعربية؟

وهذا دليل على أن الأتراك أنفسهم كانوا يندمجون بأهل البلاد يتعلمون لغتهم، ويلبسون لباسهم ويعيشون عيشتهم[1].

وإذا كان الجزائريون قد احتفظوا بعروبتهم على الرغم من الاضطهاد الفرنسى، ولم يذوبوا فى بوتقة المستعمرين الأوروبيين كما ذاب أهل الأمريكتين الشمالية والجنوبية، وأهل أستراليا فى بوتقة السكسونيين والإسبان والبرتغاليين مثلا، أو كما ذاب أهل الجزائر أنفسهم فى بوتقة العرب الفاتحين، فالفضل فى ذلك يرجع إلى الدين الإسلامى وحده الذى كان الجامعة الكبرى للأغلبية الساحقة من سكان البلاد.. ولعل وجود الأجنبى فى الجزائر جعل الجزائريين أشد حرصا على عروبتهم وإسلامهم من أى وقت مضى.

وبلغ عدد المسلمين فى الجزائر فى الستينيات أكثر من تسعة ملايين نسمة بحسب تقدير الفرنسيين أو إحصائياتهم، وربما كانوا أكثر من ذلك أيضًا... ويقول الفرنسيون إنه لم يكن يوجد فى الجزائر يوم استولوا عليها أكثر من مليونى نسمة، وقد يكون هذا صحيحا ولكنه لا يفيد الفرنسيين فى غايتهم التى يرمون إليها، وهى أن السكان زادوا

---

(١) الجزائر العربية أرض الكفاح د/ إحسان حقى - منشورات المكتب التجارى - بيروت - ١٩٦١ م.

بفضل عنايتهم بهم، والواقع أن العالم كله قد ازداد سكانه فى هذين القرنين زيادة كبيرة، وهو آخذ بالازدياد على نطاق واسع حتى فى البلاد المتأخرة، ولذلك نستطيع أن نضيف هذه الدعوى الفرنسية إلى دعاويهم الكثيرة التى لا تقوم على أساس علمى واقعى.

وهكذا فالمسلمون هم سكان البلاد الأصليون، وأصحابها الشرعيون عرف التاريخ منذ عهده الأول أصولهم وأنسابهم، وسجل لهم أمجادهم قبل الإسلام وبعده، والمسلمون الجزائريون عصبة واحدة هى عصبة الإسلام، وأمة واحدة هى أمة القرآن، وجماعة واحدة هى جماعة القومية الجزائرية، اعتنقوا الإسلام دينا منذ القرن الأول الهجرى بصفة إجماعية، واتخذوا العربية لسانا، والسنة المحمدية مذهبا، لا فرق فى ذلك بين سكان جبال الجزائر وسهولها ونجودها وصحرائها، ولطالما حاول المستعمرون وأنصار المستعمرين أن يحدثوا التفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات القبلية العصبية والجنسية التى يحاربها الإسلام وتقاومها الوطنية فما نجح فى ذلك لا قليلاً ولا كثيرا.

وقامت الثورة الكبرى على الاستعمار ونظمه وأحكامه فإذا بالأمة الإسلامية الجزائرية تهبُّ عن بكرة أبيها مشاركة فى الثورة مؤيدة لها، ولربما كانت الجهات التى حاول الاستعمار إبعادها عن العروبة وصدها عن الإسلام أكثر الجهات إمعانا فى الثورة، وإقداما عليها.

أما إذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين نظرة بحث علمى بحت رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين.

* الأصل الأمازيغى الذى أطلق عليه اللاتينيون ومن والاهم اسم البربر.
* والأصل العربى الوارد مع الفتوحات الإسلامية.

أولاً: العرب:

وهم الأغلبية العظمى من سكان القطر الجزائرى (٧ من ١٠) وقد استقرت أقدامهم فى بلاد المغرب العربى كله منذ أيام الفتح الإسلامى الأول وتغلغلوا بين السكان الأولين.

لكن الجند العربى الأول؛ جند الرواد لم يكن كثير العدد فبقيت أكبر أقسام البلاد على مازيغيتها إلى أن حدثت تلك الهجرة التاريخية الشهيرة هجرة قبائل بنى هلال

وبنى سليم من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربى عام ٤٤٤ للهجرة، فتدفق سيلهم، وتكاثر عددهم وانتصبوا فى سائر السهول والواحات، وأغلب الجبال، واختلطوا بالعنصر الأمازيغى المسلم اختلاطا وثيقا فتصاهر العنصران وامتزجا وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة، فكونت منهم الشعب الجزائرى العربى المسلم المجاهد فى سبيل دينه وعروبته ووطنه. وكان الخليفة الفاطمى المستنصر يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة فى المغرب العربى لأنهم خلعوا بيعته، وخطبوا باسم الخليفة العباسى فأمر أعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز إلى أرض المغرب، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطد أقدام العروبة فى هذه الأرض إلى الأبد، فرغم وقوع اضطراب سياسى واقتصادى فى البلاد من جراء هذه الهجرة دام عددا من السنين فقد تمكن السكان الأقدمون من أمازيغ وعرب والسكان الجدد من بنى هلال وبنى سليم من الاختلاط والامتزاج، فتكونت الجامعة الإسلامية العربية على فلول العنصريات القديمة.

والعرب فى القطر الجزائرى ينتسبون إلى هذه القبائل العربية الأصلية:

أثبج ـ جوشم ـ رباح ـ زغبة ـ معقل ، وكلهم من بنى هلال بن عامر.

ثم قبائل: ديات ـ هيب ـ زغب ـ عوف ، وهم من بنى سليم بن منصور.

والعرب اليوم فى القطر الجزائرى يتحلون بأرقى وأرفع ما فى العادات والتقاليد العربية الكريمة: النجدة، المروءة، الكرم، الوفاء.

ولسانهم ـ وخاصة فى الجهات التى لم تدنس باستقرار الاستعمار الفرنسى ـ فصيح بصفة مدهشة لم يختلط بأى كلمة دخلية، فهم يتكلمون لغة قريش، ويستعملون تراكيب القرآن الكريم، وراثة عن آبائهم وأمهاتهم لا تعلما وتصنعا، وهذا شأن البادية الجزائرية كلها، وخاصة فى النجود وفى الجنوب.

ثانيا: الأمازيغ (البربر):

هم أصل سكان المغرب العربى كافة وهم الذين اخترقوا عشرات القرون من تاريخه إلى أن وحد الله البلاد تحت راية الإسلام فى دائرة العروبة.

وهل الأمازيغ الأحرار بُعَدَاء عن العرب، غُرَبَاء عن العروبة الأولى؟

كلا! فإن ابن خلدون مؤرخ البربر الأكبر عمدة تاريخ البلاد القديم والمعتز بأصله البربرى ـ كما يبدو من تاريخه ـ يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء مازيغ بن

كنعان بن حام، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب مارين بالبلاد المصرية، وقد أخذوا منها بعض الطقوس الدينية كعبادة (عمون) وآثارهم المنقوشة العتيقة ببعض جهات الجنوب تؤكد هذا.

ثم إن بنى كنعان من أهل فينيقيا قد اختلطوا بأزيغ اختلاطا وثيقا منذ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد.

وإذا كانت لغة الفينيقيين عربية وتشبه إلى حد بعيد اللهجة العامية العربية المستعملة اليوم فى الجزائر فقد استعمل البربر الأمازيغ تلك اللغة، وأصبحت لسان المعاملة والعلم بينهم قبل انبثاق فجر الإسلام بنحو ١٧٠٠ سنة، وأغلبية الأمازيغ المستقرين بالقطر الجزائر، والذين لم يندمجوا اندماجا تاما فى العرب من قبائل البرانس، ومنها: صنهاجة ـ كتامة ـ مصمودة ـ لمطة.

والأمازيغى البربرى فى الجهات التى يسكنها بالبلاد الجزائرية يمتاز بالصلابة والشجاعة والتمسك بالرأى وعشق الحرية إلى درجة الهيام، وهو يسكن غالبا الجهات الجبلية الوعرة التى آوى إليها إثر الحروب الكبيرة التى اصطلى بنارها منذ عهد روما، ويعيش فيها عيش الكد والعمل والإصرار، فيشترك الرجل والمرأة والصبى فى الأعمال المرهقة للاحتفاظ بالحياة فى بلاد الآباء والأجداد.

والأمازيغى البربرى فى جباله محافظ ـ مع إسلامه المتين ـ على تقاليده وعوائده، مضياف كريم رغم فاقته، لا يصبر على عار ولا يضيع عنده ثأر.

والكتلة الأزيغية الكبرى فى القطر الجزائرى هى جبال جرجرة أو بلاد القبائل الكبرى وأهمها قبيلة (زواوة) وتقع شرق مدينة الجزائر موازية للبحر، ففى هذه الجبال المنيعة التى صارعت الأمم وغالبت الدول وسجل التاريخ على فجاجها ومرتفعاتها أروع صور البطولة والنجدة. ومازال يعيش عدد كبير يحتفظون بنظام العائلة، ويدينون جميعا بالإسلام الحنيف، ولهم صلابة فيه، ويتكلم أكثرهم اللغة العربية إلى جانب اللغة المحلية، فليس فيهم من لا يتكلم العربية إلا أعداد قليلة، ورغم أن الاستعمار قد أصاب سكان هذه البلاد بنكبات فادحة واستحوذ على أجود أراضيهم الجبلية فقد حاول أن يفصل بينهم وبين العرب وأن يقتطعهم من جسم العروبة والإسلام، فنشر بين ربوعهم التعليم الحكومى الفرنسى، وقاوم العربية مقاومة عنيفة، وحارب الإسلام حربا لا هوادة فيها، وأفسح الطريق أمام الإرساليات المسيحية التى تنادى بالنعرة

البربرية، وتدعو الناس جهاراً لمقاومة العربية والإسلام؛ لكى تتكون له فى هذا القطر فئة من أهل البلاد لغتها الفرنسية ودينها المسيحية، ولكن أهل البلاد قاوموا وتصلبوا فباء الاستعمار بالفشل الذريع، فبفضل الدعوة الإسلامية الصادقة التى قام بها الشيوخ المسلمون قديما، والنهضة الحديثة التى تولت أمرها جمعية علماء المسلمين، والبعث السياسى الذى تم على أيدى الأحزاب الوطنية الجزائرية خسر الاستعمار معركته، فإذا بالكتلة الأمازيغية البربرية تقف فى صف الثورة الكبرى تحت راية الإسلام والعروبة والوطنية الجزائرية، وقد ذابت فى ذلك كل الفروق، ولم يبق لكل أبناء الوطن من غاية إلا الاستقلال الوطنى، ولم يبق لهم من عدو إلا الاستعمار الغاصب.

الفتح العربى والدين الإسلامى

وجاء الإنقاذ من الشرق بواسطة الدين المحمدى ومجاهديه الميامين، وقد كانت الدنيا تنتظر نورا جديدا فجاءها النور من مكة أمِّ القرى، وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاما جديدا قوامه العدل والحرية والتساوى، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا، ونعيم الآخرة. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٣].

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الناس سواسية» ويقول سيدنا عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ خليفة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

كانت سنة ٦٦٧ للميلاد سنة إنقاذ لبلاد المغرب العربى حولت مجرى تاريخه إلى الأبد، ورمت به فى اتجاه جديد، اتجاه الحضارة الإسلامية العربية، فبرز فى ذلك الميدان قويا عزيزا، وساهم بقسط وافر فى إقامة دعائم تلك الحضارة الرفيعة الذرى.

جاء عبد الله بن سعد، وعبد الله بن الزبير فحاربا الروم وانتصرا، ثم جاء عقبة بن نافع لتوطيد أركان الفتح واصطدم بالقومية الوطنية الأمازيغية التى لم تكن تريد الخضوع لأحد، فوقعت المعارك الطويلة التى استبسل فيها رواد الدين وطلائع المدنية، كما استبسل فيها أبطال الوطنية وأنصار الاستقلال الملتفون حول زعيمتهم (الكاهنة) وكانت الغلبة فى بادئ الأمر لها، وكان معقلها (جبل أوراس) الأشم.

ثم رأت ـ لأول مرة فى التاريخ ـ أن تسلك سياسة (الأرض المحترقة) فأمرت بإحراق القرى والمدن والمزارع والغابات كيلا يبقى للعرب مطمع فى البلاد ـ لكن القائد حسان ابن نعمان أعاد الكرة على رأس أبطال العرب فدمر الكاهنة وجموعها، وأفهم الأمازيغ الأحرار أن القادمين الجدد إنما يتخذون شعارهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [سورة النحل الآية ٩٠].

وأنهم ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض إنما جاءوا دعاة ـ يريدون الهداية. فانضم الجند الإسلامى يعتمد على الفرق الأمازيغية المسلمة، بل لم ينقض على الفتح إلا أمد وجيز حتى كان (طارق بن زياد) الأمازيغى يسير إلى فتح بلاد الأندلس على رأس جند من خير ما عرف الإسلام من جند قوامه الأزيغيون (البربر) الذين حققوا بواسطة الإسلام تلك الآمال العظيمة التى حطمتها روما والتى بقيت تصارع الموت، لكن الإسلام حقق الحرية والاستقلال ، وكان اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية وامتداد أطراف المملكة من تخوم الهند وسمرقند حتى أواسط فرنسا، وبعد الأطراف عن مركز الخلافة بدمشق ثم ببغداد ـ سببًا فى استقلال الكثير من البلاد الإسلامية بأمر نفسه وتأسيسه ممالك محلية تتبع الخلافة فى بعض الأحيان اسما وتخرج عنها أحيانا أخرى.

ومما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط ـ الأمة الجزائرية ـ أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام، فأول مملكة إسلامية مستقلة منظمة إنما نشأت بمدينة تيهرت (على مقربة من تياهرت الحالية) سنة ١٦٩ للهجرة أسسها القاضى عبد الرحمن بن رستم فانضمت لها كل أرجاء البلاد الجزائرية الحالية (ما عدا بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق).

وبهذا سبق الجزائريون بتأسيس دولتهم الرستمية المصريين الذين شادوا ملك بنى طولون، والمراكشيين الذين أقاموا دولة الأدارسة. ولقد زاحمت المدينتان الجزائريتان تلمسان وبجاية من قبلها القاهرة وبغداد وقرطبة، واجتمع فيهما من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبدا فى مدن القطر الجزائرى، وجاءتهما وفود العلم والشعر من جهات العالم العربى كله.

وجاء المستعمر الغاصب يحارب العروبة والإسلام فى القطر الجزائرى، حتى أصبح الدين الإسلامى ـ على وجه الخصوص ـ غريبا فى داره ممتهنا بين أهله وذويه منهوبا فى

أوقافه ومساجده ومؤسساته، واعتبر ـ الدين ـ ملكا خاصا من ممتلكات الدولة الاستعمارية تتصرف فيه كما تشاء.

هذا ما لا يعلمه الكثير من الناس، وهذا ما يوشك ألاّ يصدقه الكثير من الناس.. لكن هذا هو الحق الصراح دون مبالغة أو تهويل.

إن أول ضربة للاستعمار فى قطر الجزائر بعد تقويض أسس الدولة الجزائرية هى تلك الضربة التى ألحق بها الأوقاف الإسلامية بممتلكات الدولة عام ١٨٣٠ للميلاد، فكل المساجد والمؤسسات الإسلامية قد أصبحت ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة تفعل بها ما تشاء، هدمت منها على هذه القاعدة ما هدمت، ثم هى تسمح للمسلمين بإقامة شعائر دينهم فى البقعة الباقية منها، إنما لا يقع ذلك ـ وانتبهوا جيدا لهذا ـ إلا بواسطة موظفيها ورجالها ومن ينتدبهم الاستعمار للقيام بها.

فرجال الإفتاء وأئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن فيها ومؤذنوها كل أولئك من الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزينة الفرنسية، ولا يتسلمون وظائفهم إلا متى قدموا للاستعمار مايوجب رضاه، ولا يبقون بها إلا ماداموا عاملين على مرضاته.

يؤكد ذلك ما قاله أحد كبار موظفى الولاية العامة الجزائرية وهو (مسيو برك) فى مقال نشر بعد موته، وهاك مانصه :

«لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامى إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتى أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف دينى أن ينال أى رقىّ إلا إذا أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير».

«وأرى أن كل كلمة تضاف على هذه الجملة التصويرية البليغة إنما تنقص من قيمتها».

ولقد طالب المسلمون جميعا ـ وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ بتنفيذ القوانين الفرنسية نفسها مثل قانون عام ١٩٠٥ الذى يقتضى فصل الدين عن الدولة، وقيام كل طائفة دينية بأمور دينها باستقلال. لكن بينما يستقل النصارى واليهود بأمر دينهم، منذ ذلك العهد، رأينا الاستعمار الفرنسى يرفض رفضا باتا إلى يوم إعلان الثورة، ورغم كل القوانين والوعود ـ إرجاع الدين الإسلامى بمساجده وأوقافه

وموظفيه إلى جماعة المسلمين، حتى اضطر المسلمون لمقاطعة المساجد الحكومية الفرنسية وأخذوا يؤسسون لأنفسهم مساجد (حرة) قامت الأمة بنفقات بنائها الضخمة، وهى تتعهدها وترعاها بما يجب لمساجد الإسلام من رعاية واحترام، ومنها مساجد فخمة تعد تحفا من الفن المعمارى الإسلامى، وبلغت تكاليف بعضها وقت إنشائها نحو ٥٠ مليون فرنك فرنسى.

وهكذا قاومت الأمة الاستعمار فى المضمار العلمى وفى الميدان الدينى، كما قاومته فى حلبة السياسة إلى أن قامت الثورة الكبرى التى حق الله بها الحق، وأبطل الباطل. إن الباطل كان زهوقا.

التعليم العربى واللغة العربية

استولى الفرنسيون على الجزائر فظنوا أنهم استولوا على العقول والعواطف والشعور، وعملوا منذ اليوم الأول ـ على الرغم من التطورات الكثيرة التى طرأت على بلاد الجزائر ـ جاهدين لكى يقضوا على اللغة العربية، وسلكوا لهذه الغاية سبيلين: **سلبيا وإيجابيا.**

أ ـ أما السلبى؛ فإنهم أهملوا تعليم اللغة العربية فى مدارس البلاد وجعلوا المدارس كلها فرنسية بحيث لو تسنى لجزائرى أن يدخل هذه المدارس لما خرج منها إلا فرنسيا.

ب ـ والسبيل الإيجابى هى أنهم عملوا بكل قواهم لمحاربة اللغة العربية، ولإحياء الرطانة البربرية.

غير أن هذا وذاك لم ينفعاهم شيئا بل قام المسلمون وعلماء الدين والجمعيات الإسلامية وأسسوا المدارس الأهلية لتعليم اللغة العربية، وهكذا استطاع الجزائريون العرب أن ينقذوا أنفسهم من أشراك الجهالة التى نصبها لهم الفرنسيون، وأن يحافظوا على لغتهم ودينهم على الرغم من أن هذه المدارس العربية والإسلامية لم تكن لتفى بالغرض لأن تعليمها كان ناقصا وقاصرا على تعليم اللغة والدين فقط، ولم يكن من السهل قط أن يحصل عربى على رخصة بفتح مدرسة، بل إن مجرد المطالبة بذلك كان يعد ثورة ثم إن الحكومة إذا اضطرت لمنح رخصة بفتح كتاب اشترطت على القائمين عليه، أن يتبعوا تعليمات الحكومة فى كل صغيرة وكبيرة، هذا على الرغم من أنها

لاتساعد هذه المدارس بقليل ولا بكثير بينما تعطى من أموال الأوقاف الإسلامية للكنائس والمدارس اللاتينية بلا حساب .

ثم لما أخذت الحركة العربية الوطنية تقوى وتشتد وأصبح الجزائريون لا يرضون عن عروبتهم بديلا ، وقامت ثورات وتعالت صيحات وصرخات من كل جانب ـ لم تر الحكومة الفرنسية بدًّا من أن تجيب الجزائريين إلى مطالبهم إلى حد ما ، وأن تبادر وتتولى التعليم العربى لكى لا يفلت من يدها ويسير فى طريقه السوىّ ، فأنشأت بعض المدارس التى تدرس العربية مع الفرنسية ، ولاسيما مدرسة لتخريج القضاة والمفتين والعدول والمدرسين والأئمة والمترجمين الرسميين ، والسبب فى إنشاء هذه المدرسة هو مارأته من فرار ـ الجزائريين بحيل كثيرة إلى مصر وسوريا وتونس للدراسة فى مدارسها الدينية فخشيت ـ وهى على حق فى خشيتها ـ أن يعود هؤلاء الطلاب وهم لايحملون فى صدورهم علوم الدين واللغة فقط بل يحملون أيضا ناراً محرقة على رءوس المستعمرين والاستعمار .

«ولقد ناضل الجزائريون طويلا ؛ ومايزالون فى سبيل الحفاظ على لغتهم العربية ونشرها والتعبير بها فى ثقافة عربية جزائرية ، وما تزال قضية التعريب هى جوهر القضية الوطنية لأنها جوهر معركة استعادة الشخصية العربية حتى بعد جلاء المستعمرين الفرنسيين ، مع أن غياب الثقافة الجزائرية أيام الاستعمار لم تفقد الشعب الجزائرى لغته كلية ، ورغم أن الفيلسوف الألمانى «فيختة » يقول : إن اللغة تسير جنبا إلى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال يفقد أيضا لغته بصورة آلية ، وحتى إذا لم يفقدها فلا يمكن أن يكون له أدب ، كما أن الذى يفقد لغته ينتهى به الأمر إلى الذوبان» .

فالذى حدث فى الجزائر أن الاستقلال ـ وإن فُقدَ أكثر من مائة وثلاثين عاما ـ فقد بقيت اللغة تقاوم مع تسليمنا بأنه رغم الحصول على الاستقلال السياسى فما يزال جوهره بصدد أن يتحقق عند انتصار العربية انتصاراً تاما (١) .

ولعل أبرز مثال على صمود اللغة العربية وحمايتها لقومية الشعب يوم حاول المستعمرون منذ قدومهم أرض الجزائر فى عام ١٨٣٠ للميلاد إفناء اللغة العربية ،

---

(١) محاضرات عن اللغة والشخصية فى حياة الأم ـ مولود قاسم ـ الحلقة الأولى ـ جريدة الشعب الجزائرية يونيه ١٩٦٨ م .

وذلك بأن أغلقوا المدارس والمساجد وفرضوا لغتهم فى كل رسائل التبادل والتعامل، وكادوا أن يبلغوا بغيتهم لولا عوامل ثلاثة هى :

١ ـ أنهم بعنصريتهم ظلوا لايختلطون بالشعب ويتعالون عليه، يستغلونه ويستبدون به فظلت معهم لغتهم لم تغز إلا المدن ونجا منها الريف والبادية.

٢ ـ أنهم لحرصهم على إبقاء الشعب فى أدنى درجات الأمية؛ قصروا التعليم على أتباعهم وقلة قليلة من أبناء الجزائر، وبهذا ظل الشعب الأمىّ يتكلم العربية وإن لم يعرف كيف يكتبها ويقرؤها.

جـ ـ أن الإسلام ظل حصن اللغة العربية فى قلوب الجزائريين يمارسون به شعائر صلاتهم ويتعلمون عن طريقه لغتهم، ومن هنا قام العلماء بالعبء الأكبر فى المحافظة على اللغة طوال سنوات الاستعمار.

ومع ذلك فلابد من الاعتراف بأن ما بذله المستعمرون فى سبيل إفناء اللغة العربية ـ وعلى وجه التحديد فى حرمان هذه اللغة من طليعة مثقفة تكتب بها فتشكل عن طريقها ثقافة عربية جزائرية ـ قد أدى إلى غياب هذه الثقافة وبالتالى إلى غياب الوجه المصقول للغة ودعاة تطورها الطبيعى، ومن البدهى أن اكتشاف الكنوز الثقافية التى تزخر بها الشخصية الوطنية تتوقف قبل كل شىء على اعتماد الإدارة الأصلح للتقيد بها، وهى اللغة الأكثر التصاقا بالشعب والأشد قربا من ضميره ووجدانه والأكثر انسجاما مع مقدماته وقيمته الحضارية؛ لأن اعتماد لغة أجنبية للتعبير عن الشخصية الوطنية يكون مثل الاعتماد على الخشب فى نقل الكهرباء.

ولقد سجلت اللغة الوطنية انتشاراً كبيرا من خلال مرحلة الكفاح المسلح، ولم يكن ذلك مجرد صدفة لأن الكفاح المسلح تطور بين أحضان الشعب، فكانت اللغة الوطنية هى الأداة الوحيدة التى يمكن أن تعتمد فى التخاطب والتعامل بين الأفراد، ولم تتوقف الثورة المسلحة أو تتعثر فى يوم من الأيام بسبب اعتمادها على اللغة الوطنية فى ميدان الكفاح (١).

وفى هذا الصدد يقول العالم الجزائرى الكبير، وزميل كفاح ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمى : «اللغة العربية فى القطر الجزائرى ليست غريبة ولا دخيلة، بل هى فى

---

(١) الملتقى الثقافى الأول بالجزائر مايو ١٩٦٨ م.
من كلمة السيد / محمد الشريف مساعدية ـ مسئول التوجيه والأخباربحزب جبهة التحرير الوطنى الجزائرى ـ آنذاك.

دارها وبين حماتها وأنصارها وهى ممتدة الجذور مع الماضى، مشتدة الأواخى مع الحاضر، طويلة الأفنان فى المستقبل، ممتدة مع الماضى؛ لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم، وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد، وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك بدأت تتغلغل فى النفوس، وتنساغ فى الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن الكريم بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم.

فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته» (1).

---

(1) عيون الأخبار / ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ص ٢٢١ - الشيخ البشير الإبراهيمى.

الباب الثاني

الشيخ عبد الحميد بن باديس

- مولده ونشأته.
- رحلة ابن باديس إلى الحجاز وأقطار المشرق العربي.
- العوامل التي أثرت في تكوين شخصية ابن باديس.
- مجهودات ابن باديس وإمكاناته.
- وفاة ابن باديس.

الشيخ عبد الحميد بن باديس

مولده ونشأته

ولد عبد الحميد بن باديس عام (١٣٠٨ هـ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٩ م - ١٩٤٠ م) في مدينة قسنطينة بشرق الجزائر حيث سكنت القبائل العربية القادمة من المشرق في مسيرتها بأراضي المغرب، إلى جانب سكانها في الجنوب على حافة الصحراء أو في واحاتها، وحيث غلب على السكان الأصليين من ذوي الأصول غير العربية في منطقة جبال الأوراس الاستعراب فضلا عن اعتناق الإسلام.

وعبد الحميد بن باديس كما يظهر من اسمه ينتمي إلى سلالة ترتقي في أصولها إلى المعز بن باديس الصنهاجي (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ = ١٠١٥ - ١٠٦١ م) آخر سلالة دولة بني زيري في القيروان، وهم الذين ولاهم الفاطميون حكم إفريقية بعد استقرارهم في مصر، وقد ناصر السنّة وتحول عن التشيع.

وكان عبد الحميد بن باديس يردف اسمه بلقب (الصنهاجي) في توقيعه مقالاته المنشورة خاصة بالصحف.

حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ محمد المداسي، وأتم حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدِّب بذكائه وسيرته الطيبة قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير.

وفي سنة ١٩٠٣ م دخل الشاب في طور جديد من أطوار دراسته، فخيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقا آخر، فاختار طريق سلفه وهو طريق العلم والجهاد فانتخب له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الإسلامية والعربية، وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي الذي كان منتميا إلى الطريقة التيجانية سالكا منهجها. فأخذ يعلمه بجامع سيدي محمد النجار بقسنطينة مبادئ العربية والمعارف الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية.

وكان ابن باديس يعترف له بالفضل، وبما كان له من تأثير فى نفسه.

ثم هاجر حمدان لونيسى إلى المدينة المنورة متبرما من الاستعمار الفرنسى وسلطته، مجاوراً بها مدرسًا للحديث إلى أن توفاه الله، وحين عزم على الهجرة تعلل لدى السلطات الاستعمارية بأنه يسافر لمعالجة بصره، ورغب ابن باديس أن يسافر معه، ولكن أباه منعه وصرفه عن ذلك.

وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره (١٩٠٤م) زوّجه والده وأنجب ولدا سماه (عبده إسماعيل) توفى وعمره سبعة عشر عامًا.

ثم جاء دورالرحلة فى حياة الشاب ابن باديس، فسافر إلى مدينة تونس فى سنة ١٩٠٨م وسنه إذ ذاك تسعة عشر عاما وانتسب إلى جامعة الزيتونة، وعرف فى دراسته بالجد والنشاط، فأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال العلامة المفكر الصدر محمد النخلى القيروانى المتوفى عام ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م.

ومن أساتذة ابن باديس أيضًا الشيخ الخضر بن الحسين [١] الذى درَّس بجامع الزيتونة وحضر عليه دروسًا فى المنطق من كتاب «التهذيب»، كما أخذ عنه دروسا فى التفسير فى أوائل كتاب البيضاوى. وغير الشيخ الخضر عدد كبير من أجلة العلماء الذين درّسوا بجامع الزيتونة.

وتخرج ابن باديس بشهادة التطويع فى سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢م وعمره ثلاث وعشرون سنة، وعلّم سنة واحدة فى جامع الزيتونة على عادة المتخرجين فى ذلك الوقت، ولاشك فإن البيئتين الثقافية والاجتماعية اللتين احتك بهما، والعلاقات التى كانت له مع بعض العلماء أثرتا فى تكوينه وشخصيته واتجاهه العقلى، وأكثر ما كان اتصاله قويا وعميقا ومؤثراً إنما كان بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد النخلى اللذين يعتبران زعيمى النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية فى الحاضرة التونسية لأنهما كانا من أنصار أفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده الإصلاحية [٢].

---

(١) أصله من طولقة جنوب الجزائر بعد مدينة بسكرة.

(٢) آثار بن باديس جـ ١ ـ عمار الطالبى ـ دار مكتبة الشركة الجزائرية ط ١٩٦٨م.

وعاد ابن باديس إلى الجزائر عام (١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م) وانتصب بمفرده فى أول الأمر يعلم الطلاب ويثقف العامة ويخطب ويكتب فى الصحف، ويوثق صلاته بذوى المكانة والعلم والرأى على مر السنوات، حتى استطاع أن يؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م) وقد حاول وأد تلك الجهود الدائبة فى مستهل قيامها المفتى المولود بن موهوب الذى سعى لمنعه من التدريس بالجامع الكبير، ولكن تمكن والد عبد الحميد بمكانته ومساعيه من أن يستصدر إذنا لولده بالتعليم فى الجامع الأخضر بقسنطينة، وشرع يدرس به عام (١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م) ولم تكن السلطة الاستعمارية تتوقع أن ينجم عن ذلك الإذن، ما سببه ابن باديس من أخطار، وهكذا أعانت مكانة أسرة ابن باديس الاجتماعية على أن يتحرر من الحاجة للتوظف لدى السلطة الاستعمارية، وأن يخصص حياته لدعوته وجهوده الإصلاحية الكبرى للحفاظ على الشخصية الإسلامية العربية للشعب الجزائرى وتقويمها وتنميتها[١].

رحلة ابن باديس إلى الحجاز وأقطار المشرق العربى

ولما كان الحج فريضة على كل مسلم ـ إن استطاع إليه سبيلا ـ قام ابن باديس (١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م) برحلته إلى الأقطار الحجازية، وهناك التقى بالعلماء ومفكرى العالم الإسلامى، وسعى إلى شيخه حمدان لونيسى الذى كان قد هاجر إلى الحجاز فراراً من اضطهاد السلطة له، وعرض على تلميذه عبد الحميد أن يبقى هناك مقيما مثله، كما التقى هناك بالشيخ البشير الإبراهيمى، وربطت بينهما صداقة قوية إذ لازم عبد الحميد البشير طيلة ثلاثة أشهر قضياها فى دراسة أوضاع وطنهما الذى تردى أمام الوطأة الاستعمارية عليه، كما أخذا فى دراسة كيفية انتشال وطنهما من كبوته، وقد أثّرت صداقتهما القوية فيما بعد الجهود الإصلاحية لجمعية العلماء، فقد خططا معا من أجل إخراجها إلى حيز الوجود، فى الوقت الذى زادت فيه الوطأة الاستعمارية على بلادهما، كما التقى فى المدينة المنورة بالشيخ حسين أحمد الهندى الذى استشاره فى أمر أستاذه لونيسى، ولكن الشيخ الهندى أشار عليه بالرجوع إلى بلاده حيث تستفيد الجزائر من علمه وعمله.

---

(١) من تاريخ الحركات الإسلامية المعاصرة ـ عبد الحميد بن باديس ـ رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة ـ د/ محمد فتحى عثمان ـ دار القلم الكويت ١٩٨٧م.

وقبل عودته إلى الجزائر زار سوريا ولبنان واجتمع هناك برجال العلم والأدب والفكر .

كما زار الأزهر الشريف بمصر ووقف على أساليب الدراسة فيه ، كما زار الشيخ محمد بخيت المطيعى الذى حمل إليه كتاب توصية له من شيخه حمدان الونيسى الذى نعته الشيخ بخيت بأنه رجل عظيم .

وبهذا تكون قد انتهت المرحلة الأولى لتكوين فكر بن باديس ، ليبدأ بعدها أهم مرحلة وأصعبها ، وهى مرحلة الإصلاح والنهوض بأمة الجزائر ، وتعليم أبنائها ، وخاصة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١م وأصبح رئيسا لها .

ولما أسس المؤتمر الإسلامى الجزائرى عام ١٩٣٦ م كان ابن باديس قد انضم إليه فى حذر ، وسافر مع وفد من المؤتمر إلى باريس فى ١٨ يوليو من عام ١٩٣٦ م لعرض بعض المطالب ، لكن الوفد أخفق فى مهمته رغم أنه عرَّف بقضيته بعض الشىء ، سواء فى الأوساط الحزبية أو الصحافية الفرنسية .

وفى هذه الفترة الحافلة بالأحداث جاء النشيد الذى أنشأه ابن باديس ، والذى يحمل ما فى داخل نفسه من آمال نحو وطنه الجزائر المسلم ، ومما يقول فيه :

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قد مات فقد كذب
أو رام إدماجا له ... رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا ... وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب
فإذا أهلكت فصيحتى ... تحيا الجزائر والعرب

وعندما كانت بوادر الحرب العالمية الثانية تلوح فى الأفق وأخذت أيام الحرب تقترب لم يوافق ابن باديس على إرسال برقية باسم جمعية العلماء - كما اقترح البعض - لمساندة فرنسا ، وهو موقف شجاع يدل على صمود صاحبه فى الحق ووطنيته الصادقة .

* تأثر ابن باديس بالحركة الإصلاحية لجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده واقتفى أثرهما، وسلك طريق الشيخ محمد عبده فى التربية والتعليم، والإصلاح الدينى والإصلاح اللغوى، وأعجب بحركة «المنار» والشيخ رشيد رضا، وبعض تلاميذه يقولون : إنه سمع من الشيخ محمد عبده حينما زار الجزائر، ودرس بها بعض الدروس، حين عودته من المنفى فى باريس.

* تأثر بن باديس بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد أمضى عبد الحميد الجزء الأكبر من حياته يتعلم القرآن الكريم ويفسره للناس فى الجامع الأخضر بقسنطينة حتى أتم تفسيره ودراسته فى خمسة وعشرين عاما.

ويعد ابن باديس ثانى شخصية تختم تفسير القرآن الكريم فى الجزائر بعد أبى عبد الله التلمسانى فى المائة الثامنة للهجرة رغم مشاغله التعليمية الكبيرة، وأيضا الصحفية والاجتماعية التى منعته من تسجيل كتابه، كما لم تشأ إرادة المولى - عز وجل - أن تهدى الناس إلى من يسجل هذا التفسير كتابة نيابة عنه فى أثناء الدرس وينشره على الناس.

وأكد لنا ابن باديس عوامل تكوين شخصيته فى كلمة ألقاها بمناسبة ختم القرآن الكريم [1].

العامل الأول :

تكوينه من الناحيتين العملية والعلمية وتوجيهه هذه الوجهة يعود إلى أسرته، وخصوصا أباه الذى رباه ووجهه وجهة أخلاقية وعلمية، وحماه من المكاره صغيرا وكبيرا - على حد تعبيره - وكان أبوه من ذوى الفضل والخلق الإسلامى، ومن حملة القرآن الكريم، ولايخفى ما لتأثير الأسرة فى شخصية الطفل من أهمية بالغة.

والعامل الثانى :

يرجع إلى بيئته الدراسية وتأثير المربين من المعلمين والشيوخ الذين نمُّوا استعداده وتعهدوه بالتوجيه والتكوين، وابن باديس يطيب له أن يذكر لنا فضل أساتذته عليه فى تخطيط مناهج العمل فى الحياة قال : « وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ فى تربيتى وفى حياتى العلمية. . .

---

(١) آثار ابن باديس جـ١ باب التفسير - عمار الطالبى دار مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر ط ١٩٦٨م.

حمدان الونيسى القسنطينى ، وثانيهما الشيخ محمد النخلى المدرس بجامع الزيتونة المعمور، رحمهما الله».

العامل الثالث :

وفيه لم ينس الشيخ عبد الحميد أن يبين لنا عاملاً آخر من أهم العوامل وهو الشعب الجزائرى، ومايطوى عليه من أصول الكمال، واستعدادات عظيمة للخير، وهو ما عمل على تنميته والنضال من أجل تغليبه على جوانب النقص وعوامل السكون.

ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية بأنها أمة معوانة على الخير منطوية على استعدادات الكمال، وأنها ذات نسب عريق فى المحامد والفضائل.

العامل الرابع :

ثم يبين لنا ابن باديس عاملا آخر، وهم زملاؤه من العلماء الأفاضل الذين ساعدوه منذ فجر النهضة وشدوا ساعده، فقوّى بهم زناده، وسطع نجمه أمثال الشهيد الشيخ العربى التبسى الذى اختطفه المستعمرون الفرنسيون فى عام ١٩٥٧م فى أثناء الثورة وغاب عن الوجود من ذلك التاريخ والشيخ المبارك الميلى والشيخ البشير الإبراهيمى المتوفى عام ١٩٦٥م وغيرهم.

العامل الخامس والأخير :

وهو عامل يفوق جميع العوامل الأخرى والذى كرس له ربع قرن من حياته، وقد سبقت الإشارة إليه، وهو القرآن الكريم الذى صاغ نفسه، وهز كيانه، واستولى على قلبه، فاستوحاه فى منهجه طوال حياته، وترسَّم خطاه فى دعوته، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ويتأمله، فيعبُّ منه ويستمدُّ علاج أمراض النفوس وأدوائها.

إن شخصية ابن باديس غنية ومعبرة عن أزمة المجتمع الإسلامى لا تماثلها إلا شخصية جمال الدين الأفغانى فى ثرائها، وشمولها، وجرأتها، وتعبيرها عن جميع جوانب المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والدينية والعلمية والسياسية التى يتخبط فيها العالم الإسلامى.

جهود ابن باديس وإمكاناته

ابن باديس مدرس ماهر، وكاتب ممتع مهذب فى كتاباته، وهو أيضًا فقيه من الطراز الأول، خبير بمذهب مالك، متفقه على غيره من أصحاب المذاهب، يمقت التعصب لمذهب معين وله فتاوى عظيمة تحس منها أنه إهاب مُلِئ علمًا منظمًا.

وهو أيضًا مفسر ممتاز له استقلاليته فى الفهم والرأى، يقرأ التفاسير ثم يجعل من عقله مصفاة لها، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع، ولاءم العصر وصدق الخبر، مع حسن عرض، واستنباط واع.

وهو مرب من الطراز الأول أسس المدارس الابتدائية الحرة العربية فى طول البلاد وعرضها، ودعا إلى تعليم المرأة الجزائرية وأخذ بيد تلاميذه وأبنائه، وعيّن النابهين منهم فى المدارس المذكورة بأجر ضئيل يفى أولا بضرورات الحياة ويحث المواطنين على احترامهم ومساعدتهم، وكان لوالده فضل كبير فى مساعدته للوصول إلى ما أراد لمواطنيه من آمال.

وعمل ابن باديس على تنقية الدين من البدع والخرافات والأباطيل، وحمل على البدع حملة شعواء، لم تأخذه فى الحق لومة لائم حتى عاد للدين صفاؤه ونقاؤه، وعاد لأبناء الجزائر هويتهم الوطنية العربية الإسلامية.

وعمل ابن باديس على إرسال طلابه إلى الأزهر الشريف وإلى جامعة الزيتونة، وأيضا إلى جامعة القرويين فى المغرب، فعادوا علماء عاملين فى خدمة أبناء الجزائر كلها.

ولعل من أبرز أعمال ابن باديس إتمامه تفسير القرآن الكريم، فقد أتم الشيخ تفسيره فى عام ١٩٢٨م باحتفال مهيب بدأ فى مدينة قسنطينة وانتهى فى كل مدن الجزائر، وبدأ فى التفسير قبل ذلك بسنين، إذ كان يلقيه على تلامذته فى الجامع الأخضر، أو ينشره فى مجلته - الشهاب - فى باب مجالس التذكير أو فى صفحته الأخرى، حتى أتمه فى العام المشار إليه سابقا.

يقول الدكتور الطاهر مكى الذى كان يعمل أستاذا بجامعة الجزائر عن هذا العمل العظيم:

« كان مذهب الشيخ الإمام يقوم على محاولة إحياء القرآن الكريم فى قلوب مسلمى الجزائر حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم، وإحياء القرآن الكريم يكون بتفسيره وفقا لمنهج السلف، وبذلك تخلص العقائد من الأوهام والأباطيل التى شوهتها، وجعلت الدين يبدو فى نظر كثير من المؤمنين كما لو كان مضادا للعقل، وكان ملمًا بأساليب المفسرين لما يدخلونه من تأويلات جدلية مذهبية فى كلام الله، حتى ضاق صدره بسبب الخلاف فيما لا اختلاف فيه، فذاكر يوما الشيخ النخيلى فيما يجده فى نفسه من التبرم والقلق،

فقال له : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة والآراء المضطربة؛ ليسقط الساقط، ويبقى الصحيح وتستريح. وقد التزم الشيخ بهذا المنهج، وعلى هدى منه فسر القرآن الكريم كله».

وابن باديس محدّث بصير وأديب ذواقة، يعشق الأدبين القديم والحديث وينقدهما، ويعطى لطلابه وزائريه زبدة ماقرأ، ويوازن بين شعر وشعر، وينشر الملح والطرائف. وله باب فى الشهاب بعنوان : «من أحسن القصص والأدب». جمع فيه بين كل طريف وظريف.

وهو صحفى وقور هادئ رزين، يختار الموضوع ويحدد المشكلة ويصف الدواء، ويهتم بمصالح المسلمين فى جميع أنحاء الدنيا.

أصدر المجلات التالية : المنتقد ـ السنة ـ الصراط ـ الشريعة ـ البصائر، كما أنشأ الشهاب وكان قويا فى الحق ولم يطق الاستعمار ذلك؛ فعطل كل صحيفة، وبقيت الشهاب طويلا حتى جاءت الحرب العالمية الثانية.

ولما اندلعت الحرب فرضت الرقابة على ابن باديس، ومنع من مغادرة مدينة قسنطينة.

ومن أبرز مؤلفات ابن باديس :

١ ـ تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير.

٢ ـ من الهدى النبوى.

٣ ـ رجال السلف ونساؤه.

٤ ـ عقيدة التوحيد من القرآن والسنة.

٥ ـ أحسن القصص.

٦ ـ رسالة فى الأصول.

٧ ـ مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية.

٨ ـ مجموعة خطب وفتاوى.

هذه الأعمال بعضها طبع بالفعل والبعض الآخر لم يطبع بعد.

ولعل القارئ العربى المسلم يستطيع فى يوم من الأيام أن يقف على كل مؤلفات

الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس؛ لما لها من أهمية قصوى في تاريخ دعوة الإصلاح بالوطن الجزائرى[(١)، (٢)].

وفاة ابن باديس

بعد أن أثمرت دعوة ابن باديس فى الجزائر والمغرب العربى، وآتت أكلها، وزكت وأينعت وحولت وجه التاريخ الجزائرى وطنه بتعاليمه النيرة ـ يموت ميتة الأبطال المجاهدين المصلحين بين كتبه وتلاميذه فى ١٦ من إبريل عام ١٩٤٠م وذكراه باقية خالدة بقاء وخلود التعاليم الصالحة فى المجتمع الصالح، وكتب على قبره مايلى :

« الله أكبر هنا يرقد العلامة الجليل الأستاذ الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة العربية فى الجزائر وزعيمها المقدام ـ توفى مساء الثلاثاء ٨ ربيع الأول ـ ١٦ إبريل سنة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م رحمه الله ورضى عنه .

وعلى القبر أيضًا هذه الأبيات من الشعر :

ياقبر طبت وطاب فيك عبير	هل أنت بالضيف العزيز خبير
هذا ابن باديس الإمام المرتضى	عبد الحميد إلى حماك يصير
العالم الفذ الذى لعلومه	صيت بأطراف البلاد كبير
بعث الجزائر بعد طول سباتها	فالشعب فيها بالحياة بصير
وقضى بها خمسين عاما كلها	خير لكل المسلمين وخير
ومضى إليك تخصه بثنائها	وإليه من بين الرجال تشير
عبد الحميد لعل ذكرك خالد	ولعل نزلك الجنة حرير
ولعل غرسك فى القرائح مثمر	ولعل ريك للعقول منير
لا ينقضى حزن عليك مجرد	وأسن له بين الضلوع سعير

---

(١) انظر عبد الحميد بن باديس ـ رجل الإصلاح والتربية ـ عمر بن قنية ـ المركز الوطنى للنشر والتوزيع الجزائر ط ١٩٧٤م.

(٢) كتاب آثار بن باديس جـ١ إعداد وتصنيف عمار الطالبى ـ ط الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر؛ ط الأولى ١٩٦٨م.

نم هادئا فـــالــشـــعب بك راشـــد   يخـتط نهجك فى الهـدى ويسير
لا تخش صنيعة ماتركت لنا سدى   فـــالوارثون لمـا تركت كـــثـــيـــر
نفـحتك من نفـحـات ربك نفحـة   وسـقــاك غـيث من رضــاه غـزير

وحقا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ . [سورة الأحزاب الآية ٢٣] .

البـــاب الثـــالــث

دراســـة وتطـبيـــق

- ابن باديس الخطيب.
- ابن باديس المصلح والمربى.
- ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى.

دراسة وتطبيق

دراسة جيدة واعية مفيدة تناولت «نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر» خلال الفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٥٤م قدمها للمكتبة العربية الدكتور عبد الملك مرتاض، كان لابن باديس جانب منها . . . هذا الرجل الذى شاء القدر أن يكون من أعظم رجالات القرن العشرين بالقياس إلى تلك الفترة المهمة من التاريخ الجزائرى، ومدى ماتحمله الشعب فى سبيل الحفاظ على حريته ودينه ولغته، وإنه لايستقيم عن ابن باديس حديث، ولاينتظم حوله بحث حتى يعالج على أنه صحفى ـ مصلح ـ زعيم سياسى، وثائر متحفز، وعالم دين من العلماء البررة الصالحين، بل يجب أن يتناول أيضا على أنه خطيب قوى الحجة والبيان.

فى هذه الدراسة العامة تناول الباحث ابن باديس من بعض الجوانب الواسعة الخصبة والمكملة لمعالم شخصيته بصفة عامة:

أولاً : ابن باديس الخطيب.

ثانيا : ابن باديس المصلح والمربى.

ثالثاً : ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى.

ابن باديس الخطيب

لم يكن ابن باديس مصلحا دينيا، يعنى بالدين وحده، عازفا عن كل ماعدا ذلك كما قد يخيل لبعض الناس، بل كان رجلا مثقفا ملتزما إزاء مجتمعه وإزاء وطنه، يقبل على الكتابات الدينية حينا، ويعزف عنها حينا آخر إلى المواضيع الأخرى المختلفة، وكان يضطره إلى طرق هذه المواضيع المختلفة ماكان يتمتع به من مكانة اجتماعية كرئيس جمعية العلماء، وكمدير لمجلة ذائعة الصيت، وكزعيم شعبى محبوب، فهو يخطب هنا لأنه استدعى فى مناسبة ما، وهو يلقى هنالك قصيدة لأن الحماس الوطنى فاض

على قلبه فلم يستطع له ردا، وأخال ابن باديس لم يبرز فى ناحية أدبية بروزه فى الخطابة، فقد كان فارسها المعلم، وزعيمها المقدم، وقائدها البارع فى الاستحواذ على قلوب المخطوب فيهم بما أوتى من مواهب عالية فى إثارة المشاعر، وإيقاظ العواطف، وتهييج القلوب، وفى النموذج التالى من خطبه مايدل على ما أسلفنا من رأى . يقول:

«أما بعد فسلام عليكم . . يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين وسلام على مساجينكم من المساجين، وسلام على متهميكم من المتهمين، وسلام على منكوبيكم من المنكوبين، سجون واتهامات ونكبات، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولاتشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها، فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث، أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت فى صحيفة الخلود رسمها، ونقشت فى قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت فى ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوما متألقة تأخذ بالأبصار.

هذا الأستاذ العقبى بَرّأته العدالة من التهمة الباطلة، ثم أبت تلك النواحى المظلمة من الحياة الجزائرية إلا أن تعود به إلى التهمة.

وهذا الأستاذ الإبراهيمى سيق إلى المحاكمة على حفلة علمية، وقضى عليه بالغرامة، فلم يكتف فى حقه بذلك فرفعت القضية للإعادة، وهو ينتظر ما يكون.

وهذا الشيخ عمر دردور سجن فى سبيل نشر العلم والفضيلة، ثم أنصفته العدالة فأطلقت سراحه، فأبت تلك النواحى، إلا أن تعود به إلى القضاء، وهو ينتظر إلى اليوم فصله.

وهؤلاء أهل «سوف» قد ذاقوا من التغريم والنفى والسجن ماذاقوا، وروعوا فى ديارهم وأهليهم أفظع ترويع، ثم لم يثبت عليهم شيء مما رموا به إلا رغبتهم فى العلم، وطرحهم لسربال الطرقية الوسخ الثقيل.

وهؤلاء رجال التعليم فى بجاية، وباتنة وغيرهما. يساقون إلى المحاكمة المرة بعد الأخرى، ويغرمون من أجل التعليم ويهددون بالسجن.

وهذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مغلقة إلى اليوم.

وكم أذكر؟ وكم أعدد ؟

فلقد هبت الأمة لتعلم دينها فى جد ونشاط فاق السنوات المتقدمة فعولجت بهذه البلايا والمحن .

وفيم هذا كله . . على من ثرتم ؟ وإلى من أسأتم ؟ وأى حدود تعديتم ؟ وماذا تبتغون؟

لا ، والله ما أثرتم إلا على الجهل والرذيلة ، وما أسأتم إلا للأثرة والجبرية ، وماتخطيتم إلا حدود الجمود والخرافة ، ولا تبغون إلا الحق والخير والعدل والإحسان .

ألا فى سبيل الله ما لقيتم . . . ألا فى سبيل الله ما أنتم لاقون .

أيها الإخوان،

لقد اعتدنا فى كل اجتماع من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة ، وإلى الحكومة العليا ، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق .

فصدر قانون النوادى الذى يرمى إلى إخلائها ، وحرمان الكبار من التهذيب فى نواديهم ، بعدما حرموا منه فى مساجدهم . وصدر قانون ٨ مارس الذى يرمى إلى غلق المدارس ، وحرمان المسلمين من تهذيبهم وتلقين دينهم ، وآداب فنهم ، ولغة دينهم ، وصارمن شروط إعطاء الرخصة للقليل الذى أعطيت له أن يعلّم على الكيفية القديمة ، فى العصر الذى تتقدم الأمم كل عام فى أساليب التعليم نُرَدّ نحن إلى الوراء . . فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور (١) .

• عرض وتحليل الخطبة (٢) :

تبدأ الخطبة هادئة لينة ، وساكنة رفيقة ، حتى إذا ما وقع الخبر فى أذهان المخاطبين وألموا بطلائع الموضوع الذى يريد ابن باديس أن يطرقه أمامهم ، ويلقيه عليهم ، انقلب الهدوء صخبا ، واللين شدة ، والسكون اضطرابا والرفق عنفا .

---

(١) الشهاب جـ ٤ المجلد ١٤ ص ١٠٠ ـ ص ١٠٣ وتراث ابن باديس إعداد وتصنيف عمار الطالبى جـ ٣ ص ٥٦١ ـ ٥٦٤ بتصرف .

(٢) نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر د / عبد الملك مرتاض ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ١٩٥٤م .

يكدس شحنة هائلة من الحماس المضطرم، والغضب المتأجج، والحمية الحادة فى قلوب الحاضرين، فتثورلذلك ثائرتهم، ليثوروا ثورة أزلية على الاستعمار الذى أهان الجزائريين فى كرامتهم، ومسَّهم فى صميم دينهم، واعتدى على معتقداتهم، ينالون من النكال الفظيع ما لا تحتمله النفوس، ولاتطيقه القلوب.

الخطبة عظيمة الأهمية من حيث محتواها؛ لأنها تبين بوضوح اللهجة التى كان يخاطب بها ابن باديس المستعمرين، فهى تمتاز بالصراحة التامة والجرأة المتناهية، كما تمتاز بالتصوير الدقيق لحالة الاستعمار النفسية، وكيف أنه كان يتصامّ عن أن يسمع صرخات الوطنيين والمصلحين المدوية، وكأن هذا الاستعمار أراد أن يكون هو المقصود بالذات فى قول الشاعر العربى:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ‏ ‏ ‏ ‏ ولكن لا حياة لمن تنادى

فقاتل الله الاستعمار، ما أصم مسامعه، وأقسى جوانحه، وكيف لا يكون أصم المسامع قاسى الجوانح، وهو عدو لدود للشعوب؟

وهل كان الشعب الجزائرى إلا أحد هذه الشعوب؟

وهل كان ابن باديس إلا أحد الذين يقودون هذه الشعوب أيضا؟

على أن هذه الخطبة لا تكاد تعطى شيئا كبيراً عن جرأة ابن باديس الوطنية، وشجاعته الأدبية العالية، ضد هجمات الاستعمار وصولاته، ولك فيما ترك من آثاره مسرح فسيح للبحث عن مثل هذه الصفة التى تجدها فى كتاباته المتفرقة هنا وهناك، على أن الخطبة التى حاولنا أن نحلل جانبا مهما منها، لم تكن مرتجلة فيما يظهر، لكنها كانت مكتوبة، ولذلك لا ينبغى أن تعطينا صورة دقيقة واضحة عن مقدرة ابن باديس الخطابية.

والحق أن الرجل كان له من القدرة البيانية على ارتجال الكلام فى المواقف العامة مايجعل خطبه المرتجلة لا تقل روعة وبيانا عن خطبه المهيأة، يدل على ذلك تعليق أحد معاصريه على خطبة ارتجلها فى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة وألف بنادى الترقى بالجزائر، فقد جاء فى هذا التقديم أو التعليق الذى كتب قبل إثبات هذه الخطبة مايلى:

«الخطاب الذى ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى اجتماعها العام بنادى الترقى عام (١٩٣٩م) وموضوعه... العرب فى القرآن» وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، فإنه خطاب عظيم فى موضوع

خطبته لا يضطلع به غير الأستاذ فى علمه بفنون القرآن، وغوصه على مغازيه البعيدة، ونفاذه فى معانيه العالية[1].

وعلى ما يبدو فى هذا التعليق من بعض المبالغة والإطراء فإنه يدل مع ذلك على مدى استحواذ ابن باديس على قلوب المخاطبين، ويبين قدرته الخطابية الفائقة، فهو نص بمثابة وثيقة تاريخية عظيمة الأهمية.

وحسبنا أن نشير إليها فى مرجعها لمن شاء أن يدرس الخطابة عند ابن باديس ويختص فى هذا الجانب[2].

ولكننا نستطيع أن نؤكد أن الرجل كان له من القدرة الارتجالية ما كان يخول له أن يخطب مرتجلا كما يخطب مهيئًا ومقيدًا.

ابن باديس المصلح والمربى

يخيل أن لفظى التربية والإصلاح حين نثيرهما حول ابن باديس، يتداخلان لنا، ويتشابهان علينا، حتى لانستطيع أن نميز بينهما تمييزا دقيقا واضحا يجعلنا نسير فى بحثنا على هدى وبيّنة تامة، وإن كنا نقر بأن هناك كثيرا من المواطن التى يمكن لنا أن نميز بها بينهما على نحو ما.

فقد كان ابن باديس كثيرا ما يكتب فصولا طوالا حول التربية التى نعنى بها التعليم، وكان ينادى بضرورة إصلاح التعليم العربى فى الجزائر، وقد كان يقول فى جملة ماكان يقول كل حين:

«لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام، وعلمهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود فى العلم وابتداع فى العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلا اذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح ا لتعلم، ونعنى بالتعليم :

---

(١) الشهاب جـ١ ص٢١ أعداد فبراير - مارس - إبريل ١٩٣٩م.

(٢) تراث ابن باديس - إعداد عمار الطالبى الخطبة فى ثلاثة أقسام جـ٤ ص٢٩ .

التعليم الذى يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام : يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه .

ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوى فى شكله وموضوعه، فى مادته وصورته فيما كان يعلم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وفى صورة تعليمية، فقد صح عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه مسلم أنه قال : «إنما بعثت معلما». فماذا كان يعلم، وكيف كان يعلم[1] ؟

ويتجلى ابن باديس المربى الروحى فى مثل هذه النصائح والوصايا التى نصح بها للمسلم الجزائرى :

«نظف بدنك، نظف ثوبك، تبعث الخفة والنشاط فى نفسك وتنبل فى عين غيرك، وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتك، قه أهلك وولدك ومن إلى رعايتك مما تقى منه نفسك، وسيّرهم على نظام صحى، وقانون أدبى ـ تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك.

حافظ على عقلك فهو النور الإلهى الذى منحته لتهتدى به إلى طريق السعادة فى حياتك.

فاحذر كل «متعيلم» يزهدك فى علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، واحذر من دجال يتاجر بالرقى والطلاسم ويتخذ آيات القرآن وأسماء الرحمن هزؤًا يستعملونها فى التمويه والتضليل والقيادة والتفريق ويرفقونها بعقاقير سميّة فيهلكون العقول والأبدان.

حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك، ودينك ولغتك، وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذى أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل.

كن عصريا فى فكرك، وفى عقلك، وفى تجارتك، وفى صناعتك، وفى فلاحتك، وفى تمدنك، ورقيك، كن صادقا فى معاملتك، بقولك وفعلك.

احذر من الخيانة، الخيانة المادية فى النفوس والأعراض والأموال، والخيانة الأدبية ببيع الذمة والشرف.

---

(١) الشهابى جـ١١ م ١٠ ص ٤٧٨ عدد أكتوبر ١٩٣٤م. وانظر تراث ابن باديس ـ إعداد عمار الطالبى ٣ / ٢١٧ .

احذر من التعصب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر [1].

والذي يتأمل هذه الوصايا يجد أن ابن باديس في مستوى الرجل المربي المصلح القائد الحكيم المجرب ـ فهو لايرسل الكلام بدون معان، ولاينطق بغير ما لايعلم، وإنما يرسل كلماته الحكيمة كالشهب اللامعة التي لا تقع حتى تترك أثرا فيما وقعت عليه. ذلك هو ابن باديس المربي [2].

* * *

أما ابن باديس المصلح، فقد وجدناه ينادي بإصلاح التعليم كما كان ينادي بإصلاح الدين، وضرورة تجديد مفاهيمه التي لا ينبغي أن تظل جامدة بالية، بل يجب أن تساير العصر، وتتمطط مع مصالح المسلمين تبعا لتغير الزمان والمكان، لأن الإسلام دين عالمي، وإذا كان كذلك حقا، فما أولى أن ننظر إليه نظرة عميقة واسعة شمولية تجعله يستجيب لمصالح الناس جميعا، ويتفق مع سائر المجتمعات بعد أن يكيفها بكيفيته، ويطبعها بطابعه. فما قيمة إسلام ترثه عن أبيك ثم لا تستطيع أن تصنع به شيئا؟

وفي هذا المقال الإصلاحي الذي كتبه ابن باديس في مفهوم الإسلام بنوعيه الوراثي والذاتي مايوضح وجهة نظره في الإصلاح الديني بوجه عام يقول ابن باديس:

«يولد المرء من أبوين مسلمين فيعد مسلما، فيشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين: تجري على لسانه وقلبه كلمات الإسلام وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، فراق روحه أهون عليه من فراق الإسلام، ولو نسبته لغير الإسلام... لثار عليك أو بطش بك، ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام، ولا عرف شيئا من أصوله في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يتلق شيئا من معاني القرآن العظيم، ولا أحاديث النبي الكريم ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذا مسلم إسلاما وراثيا لأنه أخذ الإسلام كما وجده من أهله ولابد أن يكون بحكم الوراثة قد أخذه بكل مافيه مما أدخل عليه وليس منه من عقائد باطلة، وأعمال ضارة، وعادات قبيحة، فذلك كله عنده هو الإسلام، ومن لم يوافقه على ذلك كله فليس عنده من المسلمين.

---

(١) انظر تراث ابن باديس ـ الطالبي ٣/ ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٢) انظر المرجع السابق ٣/ ١٧٥ ـ ٢٧٤.

هذا الإسلام الوراثى هو الإسلام التقليدى الذى يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبة أهله للإسلام إنما هى محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الوراثى هو إسلام معظم عوام الأمم الإسلامية، ولهذا تراها مع ما أدخلت على الإسلام من بدع اعتقادية وعملية، ومع ما أهملت من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه متمسكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلا . . ولو لحقها لأجل تمسكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان.

لكن هذا الإسلام الوراثى لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها، وتفتح أنظارها.

والإسلام الوراثى مبنى على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر، أما الإسلام الذاتى فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقّه حسب طاقته فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو الإسلام بحسنه وبرهانه، وماليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هى بمقتضى الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الذاتى هو الذى أمرنا الله به، فى مثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سورة سبأ الآية ٤٦].

فبالتفكر فى آيات الله السمعية، وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنهض الأمم فتستثمر ما فى السموات وما فى الأرض، وتشيد صروح المدنية والعمران.

إذن فنحن المسلمين، مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا . . فبماذا نتوصل إلى هذا الجانب المفروض؟.

لذلك سبيل واحد هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون أفرادا وجماعات مسئولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات للرجال والنساء، كلٌّ بما استطاع، والقليل من ذلك خير كثير: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [سورة القمر الآية ١٧][1].

---

(١) الشهاب حـ٣ م ١٤ الافتتاحية وتراث ابن باديس عمار الطالبى ٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وأتساءل مع الدكتور مرتاض صاحب كتاب «نهضة الأدب المعاصر بالجزائر» : ما الداعي الذى يدعو إلى نقل مقالة ابن باديس مع إمعانها فى الطول؟

* إن أهم مايدعو إلى ذلك هو التأكيد على أن الإصلاح الدينى الذى كان يرمى إليه ابن باديس إنما كان الغرض منه إصلاح المجتمع أولا وأخيرا، سواء أكان هذا المجتمع جزائريا أم غير جزائرى طالما كان يدين بالإسلام، فقد عمم ابن باديس فى هذا المقال ولم يخصص «فبالتفكر فى آيات الله السمعية وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم فتستثمر ما فى السموات وما فى الأرض، وتشيد صرح المدنية والعمران» فإذا كان المواطن مسلما عمليا، لا مسلما يبنى إسلامه على الوراثة والتقليد والاتباع والتسليم ـ كان مفكراً، وإذا كان مفكرا كان كل شىء، فلا شىء أعلى من التفكر والتفكير، وبذلك يستطيع هذا المسلم أن يستثمر موارد الأرض وأن يستكشف أسرار السماء، فيبنى للحضارة صرحها، وللعمران دعائمه فمعالمه.

ولكن هل يكون المواطن المسلم مفكراً وهو جاهل؟ بل هل يكون المسلم ذا إسلام ذاتى حقيقى وهو غير متعلم؟ وإلى أية وسيلة يلتجئ إذا أراد أن يكون إسلامه لا تقليديا ولا وراثيا. بل إسلامه ذاتيا: أى كاملاً مثاليا؟ ثم إذا أراد أن يكون إسلامه قائما على الفكر والإيمان والعمل جميعا، فبأى شىء يتمسك؟ وإذا أراد أن تكون محبته للإسلام محبة عقلية بحكم العقل والبرهان كما هى بمقتضى الشعور والوجدان فبأى حصن يلوذ؟

إن الأمر لهين، والخطب يسير، فسبيله لتحقيق ذلك شىء واحد لا ثانى له وهو التعليم ولكن أى تعليم؟ إنه التعليم القائم على تفهم مبادئ الإسلام وإدراك أصوله العميقة، وفهم معتقداته الوضاءة، إذ «لا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام».
فإذا لم يتعلم من هذا الإسلام ما يكفل له فهمه وإدراكه والتشبع بمبادئه الكريمة السمحة فهو خليق بأن يضل فى سبيله التى يسلكها للحياة ضلالا بعيدا، وساء عيشا من كان من الضالين.

وليس هذا التعلم مما يتعلمه فرد واحد فيسقط عن باقى الأسرة كالتطوع فى عمل جماعى ما، بل إنه تعلم محتوم، يجب على الرجال كما يجب على النساء، وهو مفروض على الأبناء كما فرض على البنات.

* تأمل هذه الفلسفة الباديسية البارعة فى إقامة كل إصلاح على التعلم، وفهم

الإسلام فهما صحيحا سليما من شوائب السخافات والخرافات، تجده قد أقام مذهبا فكريا ذا قواعد وأصول.

وهذه القواعد والأصول مستمدة كلها من مبادئ الإسلام، ومنتزعة من صميم القرآن الكريم، إنه مذهب فلسفى خليق بأن يدرس دراسة فلسفية عميقة على حدة لتستخرج منه العناصر والأجزاء ولتحلل أفكاره تحليلا مفصلا مدققا، فبدون ذلك لا نستطيع أن نفهم ما كان يرمى إليه ابن باديس.

وعلى أن التعليم فى حد ذاته ليس شيئا ذا بال حتى يكون مصحوبا بالأخلاق لأن الأمم تنهض بالأخلاق، ولا تكون الأخلاق إلا بالتربيتين الوطنية والدينية معا، ولا تكون التربية إلا بالتعلم، ولا يكون التعلم إلا بالعلماء.

فإنما «الأمم بعلمائها الذين يقومون على تربيتها، وتهذيب أخلاقها وتوجيهها نحو الخير والكمال، وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال «إنما بعثت معلّما» فالتربية والتعليم هما وظيفة الأنبياء، وبالقيام بهما كان العلماء ورثة الأنبياء» [1].

فالعلم لا يكون علما فى نظر ابن باديس إلا بالأخلاق، كما أن الأمم لا تكون أمما إلا بالأخلاق، كما أن الأخلاق فى حد ذاتها لا تكون إلا بالتعلم، فكأن الأمم والأخلاق والتعلم والتدين من الأمور المتلازمة التى لا يقوم أحدها بدون الآخر، فمن فرط فى ذات الأخلاق فليس من العلماء، ومن لم يكن عالما فلا دين له لأنه مقلد متبع لا مفكر مجتهد، ومن زعم لنفسه الأخلاق ثم كان فى أثناء ذلك جاهلا فإنما هو مهرج سخيف، بل من زعم أنه موجود على الأرض : يشعر ويفكر ويحيا وهو لا متخلق ولا متعلم فإنما هو يتعلق بالأوهام، ويلوذ بالخيال.

* وبعد...

هذه بعض مظاهر الفلسفة الباديسية الإصلاحية القائمة على ثلاثة أمور :

الدين - التعلم - الأخلاق.

والمقصود من هذه الفلسفة الإصلاحية ليس الآخرة وحدها، ولكن الدنيا بالدرجة الأولى، لأن الأمم التى تستثمر ما فى السموات وما فى الأرض فإنما هى أمم حية تعنى ببناء اقتصادها وحفظ كيانها الوطنى من الانهيار.

---

(١) الشهاب جـ٨ أكتوبر ١٩٤٨م.

أ ـ ابن باديس الصحافى:

الصحافة كانت أحد الجوانب المهمة من كفاح ابن باديس الإصلاحى؛ إذ أنشأ المنتقد والشهاب ليؤديا دور المنار فى مصر، ويزيدا عليه الدعوة إلى التحرير السياسى، وإذا كان الاستعمار الفرنسى يزعم أنه يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية فى العالم فإنه يحاول القضاء على قوم يئنون تحت مظالمه الغادرة، إذ يشن عليهم حرب الإبادة والاستئصال دون ذنب وبلا هوادة.

إذا كان الاستعمار يزعم عكس ذلك فإن ابن باديس قد جعل من صحيفته ميدانا رحبا لإبادة هذا الزعم، فهو يذكر مواطنيه بفظائعه المنكرة فى وطنه الجزائر وأنه ـ أى المستعمر ـ لم يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية كما يزعم.

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة ابن باديس وحججه القاطعة على نزالة طغيان المستعمر، وهى التى أوحت له العزم فى جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين، ويرد على دعاة الفرنسة المزعومة بمثل قوله فى صحيفة الشهاب إبريل من عام ١٩٣٦ :

«إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض، وهى ما تزال حية، ولم يزل لهذه الأمة تاريخها اللامع، ووحدتها الدينية واللغوية، ولها لغتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثل سائر أمم الدنيا، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا، ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا حتى ولو جنسوها».

المنهجية الصحفية عند ابن باديس :

ملأ أبناء الجزائر قلوبهم حبا لعبد الحميد بن باديس لا لكونه كان عالما، ولا مربيا، ولا سياسيا، ولا مصلحا، فما أكثر المصلحين وما أكثر الساسة، وما أكثر مما يتصور أى متصور، ولأنه ـ أى ابن باديس ـ عاش للجزائر ووهبها حياته راضيا مطمئنا مؤمنا بخلودها وعزتها وكرامتها، فقد خلق ابن باديس (أيديولوچية) عظيمة ووطنية خالصة، وأعطى من حياته مثلا قويا للدفاع عن المثل العليا وعن كرامة الشعوب وحريتها.

كان ابن باديس صحفيا ممتازًا، وأستاذا للصحفيين بدون منازع، والجانب الصحفى يظهر فى مجالات مختلفة من حياته.

فهو كرجل مفكر كان يدرك ما للصحافة من أهمية فى نشر الفكرة الإصلاحية، ويدرك مدى أهميتها فى توعية المواطنين، كان يؤمن بالصحافة كقوة وسلاح يستعمل فى محاربة الظلم، والدفاع عن الحرية والحق والسلام، وكوسيلة فعالة لنشر المعرفة والعلوم.

وقبل أن يشرع فى أى عمل آخر من أعماله الإصلاحية بدأ عبد الحميد يفكر فى إنشاء المطبعة . وكانت الصحافة هى بداية أعماله الإصلاحية.

وبالرغم من العراقيل التى كانت تضعها أمامه السلطات الاستعمارية والمضايقات المالية والإدارية فقد كان يصر على استمرار الصحيفة، وكلما أغلقت صحيفة أو مجلة كان يسعى لإصدار أخرى. وهكذا، فلم يفارقه العمل الصحفى إلى أن مات رحمة الله عليه.

والملاحظة التى نخرج بها هى أن ابن باديس كان ينظر إلى المحتوى الصحفى أكثر مما كان ينظر إلى شكله، فالمهم فى الصحافة هو أن تبلّغ فكره بأى لغة كانت.

ويمكن أن نضيف إلى هذا إيمان ابن باديس بالصحافة ودفاعه عنها واهتمامه الواسع بما يصدر عن الصحافة العالمية، فقد كان يطالع الصحف العربية، يعلق عليها، وينقل منها مايراه متفقا وفكرته، ويطالع الصحف الفرنسية ويناقش مايأتى حول المسائل الجزائرية.

كما كان يطلب من بعض أصدقائه الحصول على الترجمة الفرنسية لجريدة (البرافدا) السوفياتية وترجمتها إلى العربية.

لذا؛ فكل ما كان يصدر فى صحف ابن باديس هو تعبير صادق عن حس صحافى دقيق، فكان يهتم بالمسائل الدينية والعلمية والحياتين السياسية والدولية بمنهجية وموضوعية.

وفى كل ما كان يحرر أو ينقل كان ينبع عن تجديد واسع، فهو يهتم بالأخبار العلمية العالمية الحديثة وبالثورات التى تندلع فى الشعوب المستعمرة، وأيضا يهتم بشعر وشعراء المهجر، إلى غير ذلك مما يجده المتصفح لصحف عبد الحميد بن باديس، فلم يكن صحفيا عاديا، إنما كان أستاذا للصحافة، وتتجلى هذه الأستاذية فى كونه كان يعمل فى الصحافة عن خطة ومبدأ، ومبدؤه أن يكون له صحيفته التى تعبر عن آرائه، ويتحمل هو مسئولية مايكتب.

أما الخطة التى يقتضيها التطور فنجملها فى الأصول الآتية :

أ ـ عدم التضييق فى الكتابة .

ب ـ مراعاة الميادين الفسيحة فى التفكير والبحث المنتج ، فهناك من المواضيع ما تنفد الأعمار ولا ينفد .

ابن باديس وتقاليده الصحفية المميزة :

إن المتتبع لآثار عبد الحميد بن باديس الصحفية ولأقواله حول الصحافة والصحفيين يمكن أن يصل إلى اكتشاف جوانب فكرية هامة يستحق كل منها الدرس والبحث على حدة .

أ ـ إن ابن باديس كان أول منشئ لصحافة الرأى أو الصحافة الموجهة أو الملتزمة كما يسميها البعض ، ونحن مازلنا محتاجين إلى صحافة الرأى ، فإن مستقبل الصحافة فى العالم كله متوقف ـ إلى حد بعيد ـ على عنصر الرأى والتوجيه فالعنصر الخبرى فى الصحيفة يتضاءل باستمرار بالمقارنة مع النشرات الإذاعية والإخبارية .

ب ـ النزاهة الصحفية وهذه النزاهة التى كان يحرص عليها ابن باديس هى الوسيلة الفعالة لخلق وبلورة الرأى فى الصحافة .

والنزاهة فى الكتابة الصحفية وفى المناقشة نفقد الكثير منها مع الأسف ، فما زال هناك من ينتفخ كلما وجهت إليه ملاحظة حتى ولو كانت فى سبيل الحق .

جـ ـ وضوح الفكرة وبساطة التعبير واحترام القارئ ، وهذه خصائص لايمكن أن تنجح صحافة بدونها ، وقد تدهش عندما ترى عبد الحميد بن باديس يقدم العدد السنوى من مجلة (الشهاب) ببضعة أسطر ، وليس بمقالة طويلة لاتحمل بين طياتها أكثر مما تحمله هذه الأسطر الموجزة .

هـ ـ الثقة بالأمة والإيمان بإرادة الشعب ، والعمل على إسعاده ، فهذه الروح كانت تشع فى جميع أعمال ابن باديس ، وهى التى تميز كل كتاباته الصحفية [١] .

---

(١) ملحق جريدة الشعب الجزائرية ـ مقال محمد سعيدى ١٩٧١م .

جانب من اتجاه ابن باديس فى كتاباته الصحفية الإصلاحية:

لما أحس الشيخ ابن باديس بصلابة الأرض التى يقف عليها شرع فى مهاجمة رجال الطرق الصوفية الذين سيطروا على أفكار العامة، ونشروا بينهم روح الانهزامية والولاء لفرنسا عن طريق حض الشعب الجزائرى على قبول السيطرة الاستعمارية والخضوع لها بدعوى طاعة ولى الأمر، وكانوا يفسرون مدلول الآية القرآنية : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء الآية ٥٩] على هذا الأساس . وقد بدأ الشيخ عبد الحميد حملته على رجال الطرق الصوفية سنة ١٩٢٥م فى إطار محاربة الآفات الاجتماعية كالبطالة والجهل، وكل مايحرمه الشرع كبناء القبور، وإيقاد الشموع عليها، والذبح عندها والاستعانة بأهلها . . وقد بيّن الشيخ عبد الحميد أن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، مبنية على استغلال الشيخ وإذلال الناس وتجميد عقولهم وقتل شعورهم وهممهم .

وقد اتخذ الشيخ عبد الحميد من جريدة المنتقد التى أصدرها سنة ١٩٢٦م وسيلة لمهاجمة الطرق الصوفية وإظهار تصوفها الخادع لأمته الجزائرية من الوجهتين الدينية والاجتماعية، وعندما تنبهت الإدارة الاستعمارية إلى خطورة الشيخ عبد الحميد أصدرت قرارها بتعطيل هذه الجريدة بعد صدور ثمانية عشر عدداً منها، إلا أن عبد الحميد واصل الهجوم على الطرقية من خلال جريدة الشهاب التى أصدرها بعد إغلاق المنتقد إلا أنه تمكن من خداع الإدارة الاستعمارية بتخفيف لهجة كتابته .

وقد بدأ عبد الحميد فى نشر آرائه العلمية والدينية، كما بادر أحمد توفيق مدنى بالكتابة فيها عن المجتمع الجزائرى، هذا فضلا عن عدد من أصدقاء وتلاميذ ابن باديس شاركوا فى الكتابة فيها .

كما شارك بالكتابة بهذه الجريدة بعض علماء شمال إفريقيا إذ كتب فيها من تونس بعض الشخصيات التونسية المعروفة .

ولم يكن الشيخ عبد الحميد بن باديس يتصحف من أجل أن يرتزق، كما لم يكن ينشر الحقائق من أجل أن تباع مجلته التى كان لها قراء محدودون مهما كانوا كثارا، إذا راعينا قلة عدد المثقفين بالعربية على عهد ابن باديس، فقد كان ابن باديس إذن الصحافى المثالى الشريف الذى يقول الحق، ولا يخشى فى قوله ملامة اللائمين، ولا عقاب الظالمين .

ب ـ ابن باديس المجاهد السياسى:

من أبرز الجوانب التى تستلفت نظر الباحث فى شخصية ابن باديس هو الجانب السياسى فيه، فقد كان ابن باديس يهتم بالمشاكل السياسية ويتناقش فيها، ويتحدث إلى الجماهير عنها، لكنه لم يكن يقتصر فى تناولها على الجانب الآنى الذى يشترك فى تصويره كل المثقفين، بل كان يتجاوز ذلك إلى تحليل كل الأبعاد العميقة التى لاتظهر للعيان فى الحال لأنها ماتزال مختفية فى أطواء المستقبل، وكان وهو يتعرض لقضية قائمة لايفوته أن يستخلص المبادئ العامة التى تقوم عليها، ويصوغها صياغة تصلح معها لأن تكون منهاجا كاملاً، وليس مجرد مقال عابر أو خطبة سياسية.

ومن أبرز مميزاته فى هذا المجال أنه كان يهتدى لأحسن الشعارات تعبيراً عن طبيعة المرحلة، فقد كان الشعار الذى يضعه على غلاف «الشهاب» فى الثلاثينيات هو «الحق ـ العدل ـ المؤاخاة فى إعطاء الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات».

وكان هذا الشعار فى أعوام ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١م تعبيرا عن اهتمامات مرحلة معينة من مراحل الكفاح السياسى. كان اهتمام، السياسيين فيها منصرفا إلى الحصول على جميع الحقوق المدنية والسياسية وإلغاء الفروق التى كانت تجعل من الجزائرى مواطنا من الدرجة الثانية (١).

طرق احتجاج ابن باديس على الحكومة الفرنسية:

كان لعبد الحميد فى الاحتجاج على سياسة الاستعمار طريقتان:

أ ـ الطريقة الرسمية بصفته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين لا تتعدى حدود القانون حتى يضمن المحافظة على الجمعية.

ب ـ الطريقة الشخصية بصفته عبد الحميد بن باديس، وهى الاحتجاجات اللاذعة التى ينعت فيها الاستعمار بكل النعوت، وأسلوب عبد الحميد فى التعامل مع الاستعمار يجمع بين المناداة بالوحدة بين صفوف الأمة الجزائرية التى فرقتها السياسة والمحافظة على كرامتها، وتكرار المناداة بالمساواة فى المجالس النيابية رغم قرن السياسة الفرنسية هذا الشرط بالتخلى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامى.

---

(١) ابن باديس هذا المجهول ـ محمد الميلى ـ ملحق جريدة الشعب الجزائرية عام ١٩٧١م.

ورغم رفض العلماء التنازل عن أحوالهم الشخصية فإنهم طالبوا بالمساواة، وعبد الحميد فى الطريقة الشخصية لا يهمه المحافظة على شخصه الذى نذره لخدمة قضية بلاده، أما بصفته رئيسا لجمعية العلماء فإن احتجاجاته لا تخرج عن الطور الرسمى محافظة منه على الجمعية كرمز لفكرة العروبة والإسلام.

محاولة القضاء على سياسة ابن باديس :

عندما أدركت الإدارة الاستعمارية فى الجزائر خطورة العلماء على سياستها فى الجزائر بعد فوات الأوان، فإنها سعت إلى فرط عقد هذه الجماعة صاحبة التأثير على أفراد الأمة الجزائرية بتدبير حادث اغتيال الشيخ كحول مفتى الجزائر فى أغسطس سنة ١٩٣٦م، ثم وجهت تهمة اغتياله للشيخ العقبى - وهو من كبار معاونى ابن باديس - الذى لاقى من عنت الإدارة الفرنسية الشيء الكثير.

ولما لاحت بوادر الحرب العالمية الثانية سعت فرنسا لجلب تأييد كل الجماعات السياسية الجزائرية لها، فوفقت إلا مع العلماء الذين رفضوا الخروج عن مبادئهم، فكان أن أرسلت الإدارة الفرنسية رسولا إلى الشيخ الطيب العقبى ليعرض الأمر على عبد الحميد بن باديس الذى جمع العلماء فى مناقشة حول إرسال برقية تأييد لفرنسا، وحدث اختلاف فى صفوف العلماء، فَرَأْىٌ يميل مع العقبى صاحب فكرة مهادنة السلطة بعدما رأى قسوتها أيام اعتقاله للإبقاء على مدارس ونوادى الجمعية وعدده أربعة أصوات.

ورأى آخر ضد إرسال برقية التأييد وعدده ١١ صوتا، وعندئذ أوضح ابن باديس رأيه: فى أنه ضد إرسال البرقية التى يرفض التوقيع عليها حتى لو قطعوا رأسه، فكان أن أعفى العقبى من عضوية العلماء، وأدى موقف عبد الحميد ابن باديس المتشدد وجماعته إلى تحرش الإدارة بهم؛ إذ حاولت الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وأن تحل اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية مما حدا بابن باديس إلى استنكار السلوك الفرنسى والإصرار على موقفه المتشدد. وقامت الحرب العالمية الثانية وتوفى عبد الحميد بن باديس فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠م [1].

---

(١) الاتجاه العربى والإسلامى ودوره فى تحرير الجزائر - د/ نبيل أحمد بلاسى ص ٩١ .

وابن باديس المجاهد السياسى شهد له بهذه الصفة أصدقاؤه وأعداؤه جميعا، ولعل من القول الفصل أن أنقل فقرات مما قالته فيه إحدى الصحف الفرنسية التى كانت تصدر بتونس حين سافر ابن باديس إليها من أجل حضور حفل ذكرى وفاة البشير صفر قالت Le Petit Matin :

«والشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته النارى، يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل فى القلوب سكينة السلام، وهو الرجل الذى وصل فى القطر الجزائرى إلى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة. أما سمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله . .

إن عملا يقوم به ابن باديس لايمكنه أن يتضاءل ولا أن يقف، إنه لعمل لا يسير إلا إلى الأمام، ولابد له من أن يتضخم وأن ينتشر وأن يكتسح كالسيل العرم المدن والبادية، فيحيى الموات، ويتلف المعارضة.

لقد حرك الشيخ بكلماته أوتار القلوب، فأبدع وأدهش، وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع.

إن الذين يسوقون الشعوب من أمثال ابن باديس كانوا دائما يصلون إلى أعلى الدرجات، إن لم يتموا أيامهم فى المضيق المظلم، وإن لم يأت الاعتداد السياسى على تلك الحياة فيختم صفحتها.

وإن ابن باديس من هذه الناحية لقريب إلى «ميرابو» و«جوريس» و«زغلول» لقد كان يستطيع أن يفعل مايريد فى الجموع التى كانت تستمع إلى خطابه.

وهذا مانستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة، وهل من اللازم أن أقول بأنه عندما سكت هذا الرجل، وصفق له الناس تصفيقا لم أر مثله فى حياتى، أصبح كل كلام بعد ذلك غير مساغ . . »[1].

والحق أن هذا النص القيم يمكن أن يكون وثيقة ذات شهادتين فى قوتها لأن كاتبه ليس جزائريا فيتسرب إليه الطعن العاطفى، ثم لأن النص كتبه فرنسى ـ فى أغلب الظن ـ وهو على كل حال لم يكتب أصلا بالعربية، وإنما كتب بالفرنسية، وهو صالح لأن يدرج للاستشهاد به على زعامة ابن باديس السياسية، وعلى سمعته الشعبية الفائقة

---

(١) Le Petit Matin De Mai 1937 ـ ترجمة الشهاب جـ٥ م ١٣ يوليو ١٩٣٧م.

حتى إن هذه الصحيفة ذهبت إلى أنه كان يمثل تسعة أعشار الأمة الجزائرية، وفى هذا لابن باديس شرف عظيم أن تقول فيه صحيفة أجنبية هذا، وتشهد له هذه الشهادة. فقد كان ابن باديس محبوبا فى قلوب الناس، أثيرا لديهم حقا، ولعل ذلك كان يأتى إليه من كونه عاملاً لا يعرف الراحة وثائرا لا يعرف السكون والمداهنة، عالما ينشر العلم حيثما حل، خطيبا مفوها مصقعًا يستطيع أن يعبر عن أفكاره ببيان عجيب، فصيحا جهورى الصوت.

ونحن لسنا نرتاب أدنى ارتياب فى أن حكم الصحيفة التونسية الفرنسية اللغة، كان حكما رزينا خاليا من الحماس والعاطفة، صادقا لا أثر فيه للكذب أو التزوير؛ لأن ذلك الصحافى الذى تحدث عن ابن باديس لم يكن جزائريا، بل لم يكن حتى عربيا، وإنما كان يصف ماشاهدت عيناه، ويعبر عما سمعت أذناه، ويترجم عما يعتلج فى نفسه وقلبه من لواعج وخواطر، فهو وصف شاهد عيان، وليس الخبر كالعيان ـ كما يقول المثل العربى.

نهاية صفحة الجهاد:

لعل خير مانختم به هذه الصفحة البيضاء من جهاد عبد الحميد بن باديس أن ننقل شهادة الكاتب الفرنسى ـ فرانسيس جانسون ـ كما سجلها الأستاذ أنور الجندى فى كتابه: «الأدب فى معركة التجمع والمقاومة» ص٩٣ حيث قال الكاتب الفرنسى فى صراحة سافرة:

«إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحا شاملاً فيما وصل إليه الإسلام بعد تخلصه من التحريف والشوائب التى علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك فى صحتها حيث تراكمت خلال قرون عدة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولى تدريس اللغة العربية ونشرها فى الجزائر، كما نشرت الوعى القومى مما وقف عقبة فى وجه السيطرة الاستعمارية ومما أقلق سلطات الاستعمار التى كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطة القضاء على اللغة العربية واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها، ودثر ثقافتها لتصبح نوعا من التراث الذى لا يجد مجالاً للبقاء فى غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التى تقرئ القرآن».

هذا ماقاله فرانسيس جانسون، وهو قول موجز جامع يعد شهادة صادقة لابن باديس من فرنسى كان يتمنى فى أعماقه ألا تكلل الحركة الباديسية بالنجاح.

* وبعد...

فقد رأينا أن ابن باديس كان أمة قائمة بذاتها، فهو مصلح دينى ومفكر إنسانى، ومرب معلم، وهو خطيب مفسر، وهو صحافى قدير، وهو سياسى محنك يعرف كيف يثور وكيف يسكن، وهو زعيم شعبى محبوب، وهو واعظ مؤثر فى القلوب[1].

---

(١) واقع الجزائر وثورة الإصلاح بتصرف ص ١٠٨ - ١٢٠ . ونهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر - د/ مرتاض الفصل الثالث - ابن باديس بتصرف.

البــــاب الـــرابــع

الإصلاح فى مرآة التاريخ الجزائرى

- واقع الجزائر وثورة الإصلاح.
- عوامل ظهور حركة الإصلاح الدينى.
- عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح.
- دعوات الإصلاح تلتقى:

  - جمال الدين الأفغانى - محمد عبده.
  - رشيد رضا - ابن باديس.

الإصلاح فى مرآة التاريخ الجزائرى

واقع الجزائر وثورة الإصلاح

نشأ عبد الحميد بن باديس نشأة دينية نيرة، إذ درس اللغة ومبادئ الإسلام على أيدى أناس يفهمون الشريعة فهما صافيا، ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس فأكمل دراسته الدينية، ورحل إلى بلاد الشرق العربى فزار مصر وسورية ولبنان ومكة والمدينة، واتصل عن كثب بمحاور الإصلاح الدينى الذى كانت تمثله مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده فى مصر وكان حنينه دافقا إلى هذه المدرسة، منذ سمع فى نعومة أظفاره بمحمد عبده، ولمس من أساتذته بجامع الزيتونة إجلالاً لذكره وتمسكا بمادته ومبادئه، كما كانت رحلته إلى الجزائر فى خاتمة حياته مجالا طيبا للحديث عن آرائه القويمة فى نهضة الإسلام وإصلاح المسلمين.

وقد رزق عبد الحميد هذا القلق الثائر الذى لايستقر حتى يستقيم الأمر لأهله، وتنجاب حنادس الشكوك، فأخذ على عاتقه القيام بالدعوة إلى الإسلام فى وطن مستضعف يتكالب عليه الباطل بخيله ورجله، ورأى أن الدعوة إلى الإسلام لاتفترق عن الدعوة إلى العربية، فهما قطبا الدائرة فى مناوأة الاستعمار.

وكان ابن باديس خطيبا فصيحا، إذا ارتقى المنبر يوم الجمعة نفخ من روحه العاتية فى سامعيه فأنعش الذابل وأخضر اليابس وأفسح الطريق للأمل العريض، وأما قدرته العلمية فقد كانت تمهد له انتصار الفكرة الصادقة إذا اصطدمت بالفكرة المغرضة، فيعبئ شتى جهوده كى يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لذلك كان تلاميذه يلهبون عواطفهم بأحاديثه المنبرية ومجالسه الدراسية، كما يصقلون تفكيرهم بآثاره القلمية، وقد تعدد مجال الإصلاح أمامه، فسلك طرقا مختلفة تلتقى جميعا فى الدعوة إلى الله عن بصيرة، وقد كان من قوة الإرادة بحيث صمد للاعتقال والاضطهاد دون أن يستكين، وزاد فى صلابته القوية أنه كان يقدر هذا العذاب قبل وقوعه، فهو يعلم أنه

مجاهد يجالد الأعداء فى حومة حامية، لابد وأن تنوشه السهام فى كل وقت، فمهما تعاورته الحراب فهو بطل يؤدى دوره فى المعركة دون أن ينكص على عقبيه، أو يرتد إلى الوراء بضع خطوات، ولعل من أهم الميادين التى انفسحت لجهاده: جمعية العلماء - إنشاء المدارس الإسلامية . . . ثم الصحافة فى خدمة قضية الكفاح ضد المستعمر [(١)].

عوامل ظهور حركة الإصلاح الدينى

يعود الفضل فى ظهور حركة الإصلاح الدينى وازدهارها فى الجزائر إلى مجموعة عوامل ذكرها الشيخ الإبراهيمى، وهى:

أولاً: دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح، وعلى الرغم من معاداة الكثيرين لهذه الدعوة داخل المجتمع الجزائرى إلا أنها أثارت فى نفوس الناس التطلع إلى ما هو أفضل، ويضيف الشيخ الإبراهيمى: إن وصول جريدة المنار واطلاع البعض عليها ساعدا فى إيصال فكر الشيخ محمد عبده، كما أن علماء السلف أمثال ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والشوكانى، كان لهم أثرهم فى تهيئة البلاد لقبول الدعوة الإصلاحية، ولقد أكد رجال الجمعية فى أكثر من مناسبة تأثرهم بدعوة الشيخ محمد عبده حيث يقول أحدهم: «لا نزاع فى أن أول صيحة ارتفعت فى العالم الإسلامى بلزوم الإصلاح الدينى والعلمى فى الجيل السابق لجيلنا هى صيحة إمام المصلحين الأستاذ الشيخ محمد عبده». ويقول الشيخ محمد خير الدين - وهو من الأعضاء المؤسسين لجمعية علماء المسلمين الجزائريين - فى مذكراته: «والحركات التحررية فى بعض بلدان المشرق العربى مدينة لحركة الإصلاح الفكرى والدينى التى قادها موقظ الشرق جمال الدين الأفغانى، ومن بعده الإمام محمد عبده، ثم تلميذه رشيد رضا، ولم تكن هذه الحركة بعيدة عن الجزائر بل كان مددها متصلاً، فجريدة «العروة الوثقى» التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده و «المنار» التى كان يصدرها رشيد رضا، ومجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب من الصحف التى كانت تغذى نفوس المصلحين» [(٢)].

---

(١) جمعية العلماء الجزائريين ودورها فى الحركة الوطنية الجزائرية - ط دار القلم دمشق، دار القلم بيروت د/ مازن صلاح ود/ حامد مطبقانى.

(٢) ابن باديس - الشهاب - جـ٧ م١١ أكتوبر ١٩٣٥م.

ويعترف الشيخ عبد الحميد بن باديس بفضل الشيخ محمد رشيد رضا ومجلة «المنار» عليه بقوله: «نشرنا ما يلى فى تفسير حجة الإسلام محمد رشيد رضا من آخر جزء أصدره من مجلة المنار اعترافا له بفضل السبق إلى نشر هداية القرآن على المسلمين بمجلة شهرية كانت قدوتنا فيما ننشر من مجالس التذكير.

ولم تقتصر الاستفادة من الشيخ رشيد رضا على موضوع تفسير القرآن، فإن ما كان يكتبه الشيخ رضا فى المنار وغيرها قد أوضح الإسلام للمسلمين ولغيرهم، وبين لهم ما فى الإسلام من خير وهداية».

ويضيف الشيخ ابن باديس «فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى فى العالم إصلاحا وهداية وبيانا ودفاعا كلها من آثاره» [1].

ومن المعروف أنه كان هناك اتصال شخصى بين الإمام محمد رشيد رضا وبعض رجال الجمعية، كالبشير الإبراهيمى الذى قابله فى سوريا عندما ترك الحجاز ليقيم فى سوريا وكذلك أبو يعلى الزواوى [*].

أما عبد الحميد بن باديس فقد اتصل بالشيخ رشيد رضا بالمراسلة وبطريقة غاية فى السرية والكتمان؛ خوفا من السلطات الاستعمارية التى كانت تحاول إثبات مثل هذا الاتصال إثباتا ماديا لضرب حركة العلماء.

ثانيا: الثورة التعليمية التى أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التى كان يأخذ بها تلاميذه [2].

والحقيقة أن حركة التعليم فى الجزائر والتى تعد نواة لحركة الإصلاح الدينى ترتبط بدروس الشيخ عبد الحميد فى مساجد قسنطينة، فقد بدأ عام ١٣٢١هـ - ١٩١٣م يدرّس بالجامع الكبير، ولكن منعه ابن الموهوب من ذلك فتوسط له أبوه - الذى كان موظفا رسميا لدى الحكومة - فانتقل إلى الجامع الأخضر فى بداية شهر جمادى الأولى ١٣٣٢هـ الموافق أبريل ١٩١٤م.

---

(١) ابن باديس: حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا - الشهاب جـ٩ م١١ ديسمبر ١٩٣٥م.

(*) أبو يعلى الزواوى (١٢٧٩ - ١٣٧١هـ) (١٨٦٢ - ١٩٥٢م) ولد ودرس فى زواو.. على يد شيوخها حفظ القرآن وهو ابن اثنى عشر عاما، تولى عددا من المناصب الرسمية منها الخطابة والتدريس فى مسجد سيدى رمضان بالجزائر العاصمة، كان من رجال الإصلاح وقد تولى الرئاسة المؤقتة للاجتماع التأسيسى ورئاسة لجنة العمل الدائمة بالعاصمة، كان له نشاط كبير فى الصحافة الإصلاحية... عن مقال أبى القاسم سعد الله - المجلة التاريخية المغربية السنة التاسعة ديسمبر ١٩٨٢م.

(٢) البشير الإبراهيمى «سجل المؤتمر» ص٤٧.

ثم انقطع عن التدريس فترة ليحج بيت الله الحرام ويزور مصر وغيرها من بلاد المشرق ليتعرف على علمائها، ويتلقى عليهم العلم، وكانت عودته إلى الجزائر قبيل الحرب الأولى، ثم عودة الإبراهيمى(١) والعقبى إيذانا بالانطلاقة الكبرى لحركة الإصلاح، وفى ذلك يقول مالك بن نبى: «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة» (٢).

ويقول الشيخ على المغربى(٣): «وفى هذه الفترة من الزمن . . . يؤسس هذا الأستاذ مدرسته العظيمة بقسنطينة التى هى أول مدرسة عربية تعمل لما يرقى المسلم الجزائرى ويرفع من شأنه، ويحمل حملته الشعواء على الجهل والخمول».

كانت دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس تستغرق معظم النهار، فمن بعد صلاة الفجر إلى مابعد صلاة العشاء لاينقطع عن التدريس إلا لراحة قصيرة أوعمل فى مكتبه بجريدة أو مجلة الشهاب، يعلم الصغار الذين لم يجدوا مكانا فى المدارس الفرنسية صباحا، ويعلم طلبة المدارس الفرنسية عصرا بعد خروجهم من المدرسة ليربطهم بعقيدتهم وتراثهم الحضارى . . ولم يكن ابن باديس يهدف إلى تكوين معلمين محترفين ليمارسوا مهنة التعليم بل لتكوين دعاة على أساس العلم والعمل (٤).

ولم يكتف الشيخ ابن باديس بدروسه فى مسجدى سيدى قموش والجامع الأخضر، بل كان يقوم بجولات فى أنحاء القطر الجزائرى خلال العطلة الصيفية وكذلك خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكانت هذه الجولات تهدف إلى التعرف على وطنه الجزائر لأن المشاهدة خير من السماع، وقد كان يزور الزوايا ليناقشهم فى العقيدة والفكر الإسلامى، ومن ذلك زيارته لزاوية أحمد بن عليوة(*)، وقد تحدث فى هذه الزيارة عن الأولياء وموقف الإسلام من ذلك (٥).

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره ـ عمار الطالبى جـ٤ ص٣٧ .
(٢) مالك بن نبى: شروط النهضة ط٣ بيروت دار الفكر ١٩٦٩م ص٣٠ .
(٣) الشيخ على المغربى ولد فى بلاد فرفارة ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م درس فى الجامع الأخضر ثم التحق بجامع الزيتونة وعاد إلى الجزائر ليشارك فى أعمال جمعية العلماء معلما.
(٤) مقالات فى الدعوة إلى النهضة الإسلامية فى الجزائر جمع وتعليق د/ أحمد شرف الرفاعى ط الأولى قسنطينة دار البعث ١٩٨١م من المقدمة ص ١ـ٢٨ .
(*) أحمد بن عليوة ولد فى مستغانم، هاجر إلى الشرق متنقلا بين مصر ـ سوريا ـ إيران ـ الهند، عاد للجزائر بعد عشر سنوات بعد الحرب العالمية الأولى، حارب الإصلاح بلا هوادة وأسس لذلك جريدة البلاغ الجزائرى، اتهم أحد أتباعه بقتل ابن باديس ـ انظر الحركة الوطنية ـ سعد الله جـ٢ ص ٤١٦ .
(٥) الشهاب جـ١٢ م٧ ديسمبر ١٩٣٠ ص٧٧٣ .

وفى هذه الزيارات كان يطلب من شيوخ الزوايا أن يبعثوا أبناءهم ليتلقوا العلم فى قسنطينة على يديه، فيعود الكثير منهم محاربا للعقائد الفاسدة والخرافات داعيا إلى الله على بصيرة، ومن أمثال هؤلاء: الفضيل الورتلانى، وعمر دردور، وسعيد الصالحى، وغيرهم.

وعندما وجد المصلحون أن الطرقية لن تتراجع عن موقفها بسهولة؛ أخذ ابن باديس يخاطب الشعب عبر الصحافة «واحذر كل «متريبط» يريد أن يقف بينك وبين ربك، ويسيطر على عقلك، وقلبك وجسمك ومالك بقوة، يزعم التصرف فى الكون»[1].

ثالثا: عودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم فى الحجاز ومصر وتونس وغيرها بعد الحرب العالمية الأولى.

رابعًا: وآخر هذه العوامل التى ذكرها الإبراهيمى هو العامل الذى رسمته الحرب العالمية الأولى فى نفوس الشعب الجزائرى من رغبة فى الإصلاح وظهور حقيقة الطرقية.

ويمكننا أن نضيف عدة عوامل أخرى لاتقل عما ذكر الشيخ الإبراهيمى.

ومن ذلك ظهور حركة فكرية فى بداية القرن العشرين على أيدى بعض العلماء أمثال: عبد الحليم بن سماية، والحفناوى ولونيسى وابن الموهوب، وهذه وإن كانت لاترقى إلى أهمية ابن باديس لكنها ـ لاشك ـ هيأت الشعب الجزائرى إلى قبول الإصلاح وتأييده.

الإسلام فى فكر ابن باديس:

ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم الإنسانية فى جميع أجناسها فيقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء الآية ٧٠].

ويقرر التساوى والأخوة بين جميع تلك الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات الآية ١٣].

---

(١) ابن باديس ـ الشهاب ـ العدد ٤٩ أغسطس ١٩٢٦م.

ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم . . ويقرر التضامن الإنسانى العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع والإساءة إليه إساءة إلى الجميع، فيقول: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة الآية ٣٢].

ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون الآية ٦].

ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها إلى التسابق فى الخيرات فيقول: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة الآية ٤٨].

ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ [المائدة الآية ٨].

ويأمر بالإحسان العام فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل الآية ٩٠].

ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة الآية ٨٣](١).

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا فى الإسلام - وهو الدين الذى فطرنا الله عليه بفضله علمنا أنه دين الإنسانية الذى لانجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته. وقد يظن الناس أن التمسك بالإسلام وجعله أساسا لنظام الحياة ينافيان وجود أقليات غير مسلمة فى الأمة المسلمة وينافيان الوحدة بين عناصر الأمة، وهى دعامة قوية من دعائم النهوض فى هذا العصر، ولكن الحق غير ذلك بالمرة، فإن الإسلام الذى وضعه الحكيم الخبير الذى يعلم ماضى الأمم وحاضرها

---

(١) عبد الحميد ابن باديس رائد الحركة الإسلامية بتصرف - د/ محمد فتحى عثمان.

ومستقبلها قد احتاط لتلك العقبة وذللها من قبل، فلم يصدر دستوره المقدس الحكيم إلا وقد اشتمل على النص الصريح الواضح فى حماية الأقليات:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة الآية ٨].

فهذا نص لم يشتمل على الحماية فقط بل أوصى بالبر والإحسان إليهم، وإن الإسلام قدس الوحدة الإنسانية العامة:

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات الآية ١٣].

ثم قدس الوحدة الدينية العامة كذلك: **﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾** [البقرة الآية ١٣٦].

ثم قدس بعد ذلك الوحدة الدينية الخاصة فى غير صلف ولا عدوان: **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾** [الحجرات الآية ١٠].

هذا الإسلام الذى بُنى على هذا المزاج المعتدل والإنصاف البالغ لايمكن أن يكون أتباعه سببا فى تمزيق وحدة متصلة، بل العكس إنه أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية فلا تستمد قوتها من نص مدنى فقط، وقد حدد الإسلام تحديدا دقيقا من يحق لنا أن نناوئهم ونقاطعهم ولا نتصل بهم: **﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾** [الممتحنة الآية ٩].

وليس فى الدنيا منصف واحد يكره أمة من الأمم على أن ترضى بهذا الصنف نقضًا لنظام شئونها.

وابن باديس بدوره يؤكد أن محبة المسلمين للإسلام ومجانبة العقائد الأخرى

ومايقوم به أصحابها من أعمال أبطلها الإسلام ينبغى ألا تنفك عن اجتناب الحقد على المخالفين أو إيذائهم أو إكراههم على شىء من الدين. قال أجزل الله ثوابه:

«قرر الإسلام محبة الإسلام فى قلوب المسلمين وكره ما سواه، ولكنه بيَّن لهم أنه كره يحملهم على مجانبة عقائد غير الإسلام وأعماله التى أبطلها الإسلام دون أن يحملوا حقدا على مخالفيهم أو يمسّوهم بأذى من سب أو تحقير لهم أو لمعتقداتهم، أو يكرهوهم على شىء من الدين، ولأجل أن يقتلع الإسلام جذور الحقد الدينى والتعصب على المخالفين من قلوب أتباعه، ويزرع فيها التسامح - عرفهم أن اختلاف الأمم وتباينهم فى نحلهم هو بمشيئة الله، وما كانت مشيئته إلا حكمة وصوابا.

وعرّفهم بوجه الحكمة فى هذا الاختلاف، وهى أن تباين أعمالهم بتباين مشاربهم ومداركهم مما هو ضرورى لنمو العمران وتقدم الإنسان وظهور حقائق الأفراد والأمم والابتلاء والاختبار فيما أوتيت من عقول وإرادات وقوى وأعمال، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة الآية ٤٨].

ثم أقر المخالفين على ما ينتحلون ويعتبرونه دينا وسماه دينا وحكم بأن يترك لهم فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون الآية ٦].

وأقر معابدهم وذكرها بما يقتضى وجوب احترامها بما يذكر فيها من اسم الله، وقرنها بالمساجد تأكيدا لذلك الاحترام، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج الآية ٤٠].

وأقر كتبهم لهم وسماهم أهل الكتاب وأقر مايعلمونه من دينهم وسماه عملاً فقال: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى الآية ١٥].

وأقر أحكامهم فيما بينهم ونهى عن التعرض لهم إلا إذا جاءوا بطوعهم واختيارهم متحاكمين إلى الإسلام فقال: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة الآية ٤٢].

فأنت ترى كيف أبقى لهم الإسلام كل كيانهم الديني وجميع مقوماته، وأحاط دينهم بسياج من الاحترام بعدما عرّف المسلمين أن ما هم عليه من تلك الأديان هو من مقتضى مشيئة الله وحكمته وفي صالح البشرية والعمران، وأن الجزاء على ذلك إنما هو لله وحده يوم يرجع إليه العباد: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام الآية ١٠٨].

بيان هذه الحقائق من سنن الله وحكمته وتقرير هذه الأحكام من شريعته، ربّى الإسلام المسلمين على التسامح وكوّن نظرهم لغيرهم من أهل الملل، فسلمت قلوبهم من الحقد الديني الممقوت والتعصب المذموم.

وجرت معاملتهم لهم في أيام قوة المسلمين وأيام ضعفهم على سنن التسامح والاحترام اللهم إلا وقائع نادرة جدا كانت أيام ضعف المسلمين وطغيان غيرهم عليهم، فانتقموا انتقام المظلوم المهان لا انتقام الحقود المتعصب»[1] .

والحق أن ابن باديس كان مفكراً إسلاميا معاصراً بحق، إذا صاغ الأصول التي انبنت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إنما هو واضع نصب عينيه الإسلام يلبي تطلعات الفكر وحاجات المجتمع المعاصر.

وبمثل هذا الفهم النير والرؤية الجلية كان ابن باديس يدعو ويعلم كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهو في الوقت نفسه يقدم أصول الحرية للفرد والشعب والوطن مستمدة من الإسلام نفسه واحترامه للإنسانية في جميع أجناسها ومعتقداتها. . وبهذا يصوغ العقول والمشاعر في جذورها وأعماقها، وإن لم يمس السياسة مباشرة في سطحها وظواهرها.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الإصلاح:

في جو إرهابي فظيع، وبعد فشل الدولة الفرنسية في الاحتفال بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر بسبب انطلاقات وجهود ابن باديس وصحبه الأخيار، حيث تجمع الشعب حول العلماء.

في هذا الجو اجتمع نفر صالح من إخوان عبد الحميد في نادي الترقي في مدينة الجزائر العاصمة في يوم ٥ مارس سنة ١٩٢٠م وأسسوا جمعية علماء المسلمين في

---

(١) الشهاب جـ١١ م١٣ يناير ١٩٣٨م - ١٣٥٦هـ.

الجزائر العاصمة، وانتخبوا بالإجماع الشيخ ابن باديس رئيسا لها فى أثناء غيابه، ووضع الشيخ البشير الإبراهيمى نظام الجمعية ومنهج عملها الإصلاحى، وأخذت الجمعية بقيادة رئيسها وقطبها عبد الحميد بن باديس تعمل بجد ودأب وتنظيم على تطبيق منهجها فى الحياة اليومية فى الجزائر، فأنشأت المدارس الأهلية فى المدن وفى القرى البعيدة تقوم بتدريس اللسان العربى والعلوم العامة ومبادئ الدين، وأرسلت الوعاظ المثقفين يجوبون المدن والقرى والدساكر يعلمون الناس مايهمهم لصالح الدنيا والآخرة.

وأخذت الجمعية تطبق أهدافها فى إصلاح الطرق الصوفية التى غدا أكثرها بيد الأجانب. وكان رد الفعل من قبل المحتل عنيفا؛ إذ أغلقت المدارس، وسجن المدرسون ونفى الوعاظ حتى أصدر المدعو «ميشيل» مدير الأمن العام فى العاصمة - أوامره بمراقبة العلماء ورصد تحركاتهم ونصب نفسه رئيسا للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وقوبل هذا الوضع بالاستياء والسخط من قبل المواطنين الجزائريين، وزادت مكانة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى قلوب أبناء الوطن.

وأنشأ عبد الحميد بن باديس فروعا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى شتى أنحاء الجزائر، فخلق طائفة من الدعاة والمرشدين يحملون أمانة الكلمة، ويؤدون دوره الإصلاحى فى القرى المتناثرة والعواصم النازحة، إذ يصمدون لتبديد كل فرية، وإزالة الحجب عن كل خديعة، وكانت طرق المقاومة أمامهم شاقة مرهقة، إذ لا يكتفون بمقاومة العدو المستعمر، فيزيفون أباطيله، ويعارضون اتجاهاته، بل تضطرهم المعركة إلى منازلة فريق من مشايخ الطرق أغواهم الاحتلال الفرنسى، فاتخذهم أداة لتخدير العقول وتسميمها باسم الدين، فهم يقومون بالشعوذة والدجل، ولا يكادون يفرغون من رقصات الذكر ودقات الطبول، وتأويل الأحلام وكتابة الأحجبة والتمائم ومعالجة المرضى بآيات من القرآن تساق فى غير مساقها الهادف، كما يسعون لتشويه الإسلام بترديد الإسرائيليات والدعوة إلى مسالمة الفرنسيين، مع بث التواكل والزهد، وعرض الإسلام فى صورة انعزالية جامدة لا تدعو إلى بعث أو إصلاح.

كل ذلك يتطلب أناسا من شباب المدرسة الباديسية ليكشفوا عن وجه الحق ما ران عليه من ضباب محترفى الولاية الزائفة، وأنصار الحلقات والطبول، وكان الاصطدام عنيفا بين قوم يؤيد الاحتلال مخازيهم الزائفة، ويمهد لهم السبيل لتضليل العامة وتسميم الأفكار، وبين جماعة من الفدائيين الأحرار صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فواصلوا الكفاح تحت راية قائد باسل، يرسم الخطة ويهدى السبيل.

على أن خطة جماعة العلماء فى العمل السياسى كانت من المران والسعة بحيث قبلت العمل فى كل معسكر عربى، ووزعت أبناءها بين طوائف المجاهدين دون التعصب إلى فريق معين، حتى تلاقت وتحققت النتائج السارة كما تراءت فى أحلام الأساتذة الدعاة. ولقد كان إعداد هذا الجيل المجاهد أنضج ثمار ابن باديس وأعظم أعماله، حيث استمع إلى نصيحة الأستاذ الإمام محمد عبده فى العمل على تكوين شباب مستنير يقوده التعليم تلقائيا إلى إصلاح البلاد، فيضطر الاستعمار فى كل مكان إلى التقهقر؛ إذ ينكشف خداعه لذوى الثقافة من المستنيرين بعد أن ركب مطاياه من الجهلة والرعاع وأوشاب الوصوليين من ذوى المآرب والأطماع.

اعتمدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة عند وضع مبادئها الإصلاحية وأصولها العامة التى سارت على هديها:

١ـ الإسلام هو دين الله الذى وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله وكمله على يد نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا نبى من بعده.

٢ـ الإسلام هو دين البشرية الذى لا تسعد إلا به وذلك لأنه:

أولا: كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

ثانيا: يسوى فى الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.

ثالثا: لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

رابعا: يدعو إلى الإحسان العام.

خامسا: يحرِّم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أى أحد على أى أحد من الناس.

سادسا: يمجِّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.

سابعا: ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه.

ثامنا: يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون.

تاسعا: شرك الفقراء مع الأغنياء من الأموال، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضى والأموال.

عاشرا : يدعو إلى رحمة الضعيف، فيكفى العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم .

حادى عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوههما .

ثانى عشر : يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

٣ـ القرآن هو كتاب الإسلام .

٤ـ السنة «القولية والفعلية» الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .

٥ ـ سلوك السلف الصالح «الصحابة والتابعين وأتباع التابعين»، تطبيق صحيح لهدى الإسلام .

٦ـ فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة .

٧ ـ البدعة : كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعله، وكل بدعة ضلالة .

٨ ـ المصلحة : كل ما اقتضته حاجة الناس فى أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شئونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة .

٩ ـ أفضل الخلق هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه :

أولا : اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة .

ثانيا : كان على أكمل أخلاق البشرية .

ثالثا : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .

رابعا : عاش مجاهدا فى كل لحظة من حياته فى سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة .

١٠ ـ أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له .

١١ـ أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون، فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله .

١٢ ـ التوحيد أساس الدين فكل شرك فى «الاعتقاد أو فى القول أو فى الفعل» فهو باطل مردود على صاحبه .

١٣ ـ العمل الصالح المبنى على التوحيد، به وحده النجاة والسعادة عند الله، فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذى يغنى عن الظالم شيئا.

١٤ـ ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام، وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

١٥ـ الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة.

١٦ـ المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة.

١٧ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمة، يجب تناسى كل خلاف يفرق الكلمة، ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وأدْراعِ الصبر وسلام العلم والعمل والحكمة.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف الآية ١٠٨] (١).

عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح

إن الشيخ ابن باديس هو السهل الممتنع، ذلك أن صفاته تتدرج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم والتفاؤل لهم والاعتماد على الخالق، إلى الصرامة فى الحق والشجاعة التى لاتقف عند حد هذا، إلى ذكاء مفرط وتوفيق من الله جعله قادراً على توجيه الأمة الجزائرية إلى النصر فى أناة وحزم.

(أ) تسامحه ورفقه بالخلق وتفاؤله:

تتجلى هذه الصفات مجتمعة فى مواطن عدة، فهو لايسلك مسلك العلماء شديدى التزمت الذين يغرسون اليأس فى النفوس، لأنهم يظنون أن إصلاح النفوس لا يكون إلا بالزجر واللوم والإغلاظ فى القول، بل نراه يأسر القلوب بتواضعه ومودته، فقد

---

(١) عبد الحميد بن باديس ـ قسنطينة الجامع الأخضر ـ الجمعة ٤ ربيع الأول ١٣٥٦هـ.

قيل : إنه كان يعامل تلاميذه كأبناء ، وإنه كان يودعهم فردًا فردا عند سفرهم إلى قراهم أو بلادهم ، كما نجده يأخذ بيد المذنبين برفق ، يدعوهم إلى التوبة بإصلاح أنفسهم ويستحثهم على العودة إلى الله عندما يبين لهم أن جهاد النفس هو أعظم الجهاد ، وأن الله يقبل توبة العاصين لأنه كثير المغفرة . وقل أن نجد أحدا يشبهه فى رفقه بإخوانه المسلمين ، فهو يقول لهم : إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه ، فلا يفتأ العبد راجعا راجيا المغفرة ، ولا تفقده كثرة مايذنب عن تجديد الرجوع[1] «وهو يفتح باب الأمل أمام المذنبين عندما يؤكد لهم وجوب التوبة مهما عظمت الذنوب ، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون إليه ويغفر لهم ، ولايزالون كذلك ولايزال تبارك وتعالى غفورا»[2] .

إن التوبة هى طريق إصلاح النفوس لأنها تحول دون الاستمرار فى المعصية بدافع القنوط من رحمة الله .

والإمام ابن باديس لا يريد أن يقطع طريق التوبة على أحد ، فإنه ينهى عن محاولة إذلال الخصم ووصفه بالكفر أو بأنه من أهل النار ، بل من الأفضل أن تعرض عليه البراهين على بطلان الكفر وسوء عاقبته ، ومن حسن السياسة ألا يستخدم أسلوب التقريع الذى ينفر الناس من الوعظ ، فليس ثمة نفع فى أن يقال لمرتكب الكبيرة إنه فاسق ، بل الأولى أن يبين له قبح الكبيرة وضررها ، ثم هو يبث التفاؤل فى نفوس العاصين مع تحذير المؤمنين من العجب والغرور ، فربما كانت عاقبة من هو من أهل الكفر إلى الخير والكمال ، وربما ينقلب شخص من أهل الإيمان على عقبه فى هاوية الوبال [3] .

(ب) رجاء فى الله وفرار إليه :

وليس التفاؤل عنده نوعا من الآمال الساذجة أو تخيل المحال بل أساسه عمل وقوامه رجاء فى الله «إذ من ذا الذى لم يجد نفحات الرحمن فى أكثر الأوقات فى أحرج الساعات» لكن الشيخ ابن باديس لا يتعجل رحمة الله التى ستأتى ، وقد زاد إيمانه باقتراب ساعة الخلاص من المحنة ، فقال فى اجتماع عام :

---

(١) مجلة الدراسات الإسلامية ـ العدد الأول السنة الأولى ـ يوليو ١٩٦٨م ـ د/ محمود قاسم ـ بتصرف .
(٢) تفسير ابن باديس ص ١٠٠ .
(٣) التفسير ص ١٥٠ ـ ١٥١ (٢) جريدة السنة المحمدية النبوية العدد ١٣ .

«أما بعد: فمرحبا بأبناء الجزائر وأفلاذ أكبادها، مرحبا بورثة مجدها الخالد، وحماة مجدها الطارف، وبناة مجدها الآتي الذى يتخبط به أحشاء الأيام» ولم يكن ابن باديس إلا صادق الحس، فإن هذا التفاؤل الذى بعثه فى النفوس يستطيع أى إنسان أن يلمسه فى هذه الطفرة العجيبة التى حدثت مابين سنة ١٩٣٣م - ١٩٤٨م أى عندما ننتقل - مثلا - من قراءة جريدة الصراط إلى جريدة البصائر، إذ نجد أن التهاب الشعور وعظيم الثقة بالله وبالنفس قد بلغا حدا يبشر بثورة عاجلة.

وكان الشيخ ابن باديس يعلم حق العلم أن التفاؤل لا يثمر إلا إذا كان يرتكز إلى دعامة دينية هى الاعتماد على الله لا على المخلوق، وقد أشار فى أثناء مقاومة الرجعية الطرقية له إلى أن النجاح لن يكون إلا فى جانب هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله مخلصين له الدين لا إلى المستعمر.

(جـ) خلق العفو:

ولعل من سمات ابن باديس خلقه الإسلامى الأصل وهو العفو فإن خصومه من الطرقيين، وربما كان من ورائهم محركو الطرقية - دبروا له أمراً فأفسد الله تدبيرهم عندما فشلت محاولة اغتياله، ولم ير أن ينتقم لنفسه، بل عفا عن هذا الذى أرسل لاغتياله.

(د) صرامته فى الحق:

حتى الآن لم نر إلا الجانب السمح السهل فى شخصية ابن باديس، وأظن أنه آن لنا أن نعرض الجانب الصارم الممتنع، بل لنا أن نقول:

إن طابع الصرامة والامتناع هو الغالب حتى فى جانبه السهل؛ لأنه كان فى الحق صارما وممتنعا فى تسامحه وسهولته، بمعنى أنه قل أن يدانيه أحد فى التسامح والرفق بالناس والتضحية من أجلهم.

وأما الجانب الصارم الممتنع قلبا وقالبا فيتجلى فى شدته العنيفة فى الحق وشجاعته النادرة، وما كان لأحد من معاصريه أن يدانيه فى هذين الأمرين من قريب أو بعيد؛ لأنه كان فى الحق أكثرهم فراراً إلى الله وثقة فى تأييده.

ولاشك فى أن تلاميذه ورفاقه أعرف الناس بمثل هذا الخلق عند ابن باديس، ومن هذه المواقف المتعددة نذكر مثالين:

* أحدهما كان فى معرض الرد على أحد النواب الموالين للحكومة، وكان قد زعم أن الحكومة الفرنسية هى صاحبة فضل على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأنها تساعدها بالمال، فبدأ ابن باديس يصف هذا الرجل بأنه رضى لنفسه أن يكون أداة هدم، وبوق شر وفساد فى مجلس رسمى، ثم يعجب كيف زعم هذا النائب أن جمعية العلماء مسئولة عن الفتن والقلاقل فى البلاد، ولذا يصفه الإمام بالكذب، ويحتج لذلك بالهدوء وعدم وجود صدام بين الحكومة وبين قوى أخرى «بل الموجود فى الوطن حركة هادئة عامة نحو ما وعدت به فرنسا الجزائريين من حقوق تعطى لهم» وهذا لون جديد من الجهاد السهل الممتنع الذى باشره ابن باديس فى وقت ما كان يجرؤ أحد أن يقول:

إن للمواطنين الجزائريين حقوقا يطالب بها، لكن الإمام يقول ما لا يجرؤ أحد على قوله وبأسلوب هادئ يشبه خرير الماء الهادئ المستمر الذى ينخر فى الصخر، ويدفع الجزائريين إلى التمسك بحقوقهم، ثم هو يشكك فى نيات فرنسا فيتحدث عن سكوت الجزائريين وانتظارهم لوعود كاذبة فيقول:

«اعتصموا بالانتظار الذى تعودوه من أمد طويل، فهم ساكتون منتظرون، والله أعلم بما سيكون».

* وأما المثال الثانى فهو موقف ابن باديس الصارم من دعوة الصلح بين جمعية العلماء وبين الطرقية عندما تقدم أحد الوسطاء بشروط الصلح، فقال ابن باديس: كيف يعقل أن يفيد صلح مع جماعة تطلب إليه أن يحلل حراما، ويحرم حلالا، ثم هو صلح مشروط بشروط تتلخص فى أن الطرق الصوفية تطلب على لسان الوسيط إلى جمعية العلماء أن تقرّ البدع والمنكرات، وأن تسكت عنها، وأن تثبت الضلال وأن تحرم استخدام النظر العقلى والاستدلال.

إن هذه الشروط هى فى ذاتها هدم للصلح لا شرط فيه؛ لأن قبولها معناه أن تحل جمعية العلماء نفسها.

ثم يحسم ابن باديس الأمر مع دعاة الصلح بأن يطلب إليهم أن يعرضوا هذه الشروط على حكم لا يميل مع الهوى، وهو الكتاب والسنة.

إذ إنهما المعيار الحق، ثم يتساءل: وفيم هذه الشروط التى تتنافى مع الشرع، وكان من الأولى أن يطلب أهل الوساطة إلى الطرق الصوفية أن يعودوا إلى الكتاب والسنة فيهجروا البدع، غير أن الأمر أعمق من هذا، فإن الشرط الأخير الذى تقدم به الوسطاء

هو بيت القصيد عندما يطلبون إلى ابن باديس وأصحابه ألا يشتغلوا بالسياسة، فهذا هو الدليل على أن الصلح خدعة، بل مكيدة إذ ليس هذا الشرط إلا نوعا من تحريض المستعمرين وإغرائهم بدعاة الإصلاح الدينى [1].

وفيما بعد جاءت دعوة إلى الصلح من أحد علماء الأزهر ومن بعض طلبته يرجون جمعية العلماء المسلمين بالجزائر أن تضع حدّاً لهذه الفرقة، فبين لهم ابن باديس أن الصلح، وإن كان خيراً إلا أنه لا سبيل إليه مع أصحاب الطرق.

وقد عبر عن ذلك بقوله: «إنا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان، ولا يجدى معهم حلم معاوية، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب، ولا تسامح صلاح الدين، وليس لنزاعهم معنا غاية غير كمّ أفواهنا، وكسر أقلامنا، ثم إقلال راحتنا إن أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا.

وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين:

* إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأنا وطنيون ضد الاستعمار وأننا نعمل للجامعة الإسلامية، وأنا . . . وأنا.

* وثانيتهما الاختلاق علينا مع الأمة بأنا ندعى الاجتهاد وأنا نستخف بأمتنا فى الدين وأنا ننكر الولاية والكرامة وأنا . . وأنا. وقد فطنت الأمة إلى مكرهم وكيدهم، ولعل الحكومة لا تستمر على مجاراتهم».

أى صرامة فى الحق مثل هذه الصرامة التى تهيئ لعبد الحميد بن باديس فى الوقت نفسه أن يتهم الحكومة الفرنسية بالجزائر بأنها تحرض الصوفية لوأد الحركات الإصلاحية الدينية، وذلك كله فى أسلوب رقراق يضع كل إنسان فى موضعه بصرامة ودقة ولكن دون عنف فى التعبير يؤاخذ عليه صاحبه.

١ - أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذه:

بدأ الإمام عبد الحميد بن باديس الإصلاح سهلاً هينا، وانتهى به صارما ممتنعا، على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر، ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تم بالفعل.

---

(١) السنة المحمدية العدد الثامن ٤ صفر ١٣٥٢هـ.

لقد أراد المستعمر أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية فحاصره ابن باديس بالجزائر العربية المسلمة، التى يمكن القول بأنها نجت بمعجزة، ونعنى بها معجزة الإخلاص العميق، وتوفيق الله أن وهب لها زعيما هو نسيج وحده، ظل يعمل فى هدوء حتى أصبح الهدوء لا يكفى، فثنى بالصرامة والعزم والقوى فحقق الله آماله، وآمال أمته.

٢ـ ظهور فكرة الإصلاح:

ظهور فكرة الإصلاح كان ضرورة تاريخية، فقد اتفق ابن باديس مع المصلحين السابقين من أمثال جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده على أن الأمة الإسلامية بدأت تدرك أنها دخلت مرحلة دقيقة من تاريخها بسبب عودة الغزو الأوروبى الذى ذكرها بالحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وكان سقوط الجزائر هو النذير الأول، ثم تتابعت النذر بسقوط تونس وليبيا، ثم بسط الحماية على مراكش؛ لذلك استيقظ المسلمون من ركودهم الشامل، وارتفعت صيحات الإصلاح فى جوانب العالم الإسلامى تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بالقضاء على أسبابها واجتثاث أصلها.

وقد لاحظ ابن باديس أن سلاح اليقظة كان دائما عن طريق العودة إلى الإسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة، وهو الإسلام «الذى أنقذ الله به العالم أولا، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانيا» (١).

وهناك ما يدعو إلى التفاؤل لأن المسلمين يلبون نداء الصالحين مما يقوى الرجاء ويبعث الأمل.

٣ـ نجاح خطة الإصلاح:

وهكذا نجحت خطة الإصلاح التى رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة، وهو تخطيط فى غاية البراعة، إذ استطاع أن يعزل المتحالفين، فبدأ بالطرق الصوفية التى أراد فى أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها، لأن الأخوة فى الله فوق أى اعتبار آخر. فلما حاربته بدأ يعزلها عن الشعب، فلما لجأت إلى المستعمر

---

(١) التفسير ص ٤٣٤ .

أظهرها بمظهر الخيانة ففقدت سلطانها على الشعب، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر، بل غدت عبئا عليها.

فلما انتهى من الأذناب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها؛ إذ إنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية فى الجزائر، غير أنها تنبهت بعد فوات الوقت إلى أن مصلحا قطع الطريق عليها فى رفق ودون تظاهر بالبطولة. فحاصرها ببعث اللغة، وتجديد العاطفة الدينية الصادقة مما أحيا فى الأمة روح المطالبة بحقوقها، وفى مقدمتها الحرية الدينية التى كانت فرنسا تتظاهر باحترامها، وهى الحرية التى لايمكن الحفاظ عليها فى الجزائر بصفة خاصة إلا بلسانها العربى.

لقد قام الإمام عبد الحميد بن باديس بهذا الحصار بأسلوبه السهل الرقيق الهادئ فى الوقت الذى ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل فى هذا القطر الإسلامى، فما عليهم إلا أن يدخلوه بجحافلهم.

غير أنها وجدت آخر الأمر أنها هى التى حوصرت، ونعلم جميعا نهاية هذا الحصار، فقد نجا القطر الجزائرى بفضل من الله وبإخلاص ابن باديس وتضحيات الشعب الجزائرى كله.

الدعوة للإصلاح لا تغفل وسائل العصر:

استعان ابن باديس بأدوات العصر لإبلاغ دعوته، وفى مقدمتها الصحافة، فإلى جانب دروسه ومحاضراته اتخذ من جريدته (المنتقد) التى أصدرها عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م أداة لبيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة وانتقاد الأوضاع القائمة التى تخالف أحكام الكتاب والسنة.

ومن هنا جاءت التسمية التى اختارها لصحيفته، وكان ابن باديس قد شن حملة عنيفة على الطرقية فى العام السابق على إنشاء الصحيفة وقد شارك من قبل فى تأسيس جريدة (النجاح) لكنه تركها ليستقل بجريدة يحررها دون تدخل أو مشاركة.

وبعد صدور ثمانية عشر عددا من (المنتقد) تنبهت السلطة الاستعمارية إلى خطر ماتحمله من أفكار لم تعهدها فيمن عرفت من شيوخ الدين فقررت تعطيلها.

وعمل ابن باديس على استصدار ترخيص بإصدار مجلته الشهرية المعروفة (الشهاب) راعى فى أسلوب تحريرها شيئا من المرونة دون تراجع عن أهدافه ومقاصده.

إلى جانب الصحف التى أصدرها ابن باديس وحررها بالعربية استعان على إبلاغ دعوته بكل أداة صحفية أخرى يكون قائما عليها أحد المؤمنين بدعوته المناصرين لحركته المخلصين له ولجماعته ، وكان من بين هذه الصحف مايصدر بالفرنسية ، فكانت صحيفة (الدفاع) التى تصدر بالفرنسية فى قسنطينة ويحررها الأستاذ أمين العمودى ـ منبراً لابن باديس ودعوته الإصلاحية فى الجزائر .

يقول الأستاذ مسعود علم الندوى فى مقال كتبه بالإنجليزية عام ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م بعنوان (الحركات الإسلامية المعاصرة) عن داعية الإصلاح الإسلامى فى الجزائر :

عبدالحميد بن باديس دارس متعمق للقرآن والسنة وباحث وكاتب بالعربية له موهبة الرأى المتزن ، وذو نزعة سلفية فى الفقه والدين ، وهو من نفس المستوى والنوع اللذين يدرج فيهما محمد عبده ورشيد رضا وعالما الشام عبدالرزاق البيطار وجمال الدين القاسمى ، وقد شق طريقه على النهج القويم وأصدر مجلة (الشهاب) الشهرية فى عام ١٣٤٣ هـ وصحفا أسبوعية أخرى (الصراط ، الشريعة ، السنة) .

وقد درس كاتب هذه السطور (أى مسعود علم الندوى) أعداد هذه الصحف التى صدرت منذ عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م وهو يقرر بلا تردد أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة يمكن أن توضع صحف الجزائر الإسلامية الصادرة فى ذلك الوقت فى مصاف أرقى مجلاتنا ، وإلى جانب الكتابة عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية وكان يقوم هو بنفسه بالتدريس فى قسنطينة ، وقد حمل تلاميذه وإخوانه دعوته إلى كل زاوية وركن من البلاد ، وإن كان المتصوفة والعلماء الفاسدون لم يألوا جهدا فى وضع العراقيل فى طريقه وتعويق تقدمه . وتأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) لتسير على هذا النهج ومن يوم مولدها والحكومة (الاستعمارية) لا تطيق وجودها وكذلك جهلة المتصوفة ، واستمرت دسائس الخصوم حتى وفاة ذلك المجاهد العظيم فى عام (١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م) ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث فى الجزائر لم يكن يعنى توقف الحركة التى بدأها ، فقد سارت فى طريقها[1] .

---

(١) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة ـ د محمد فتحى عثمان ط دار القلم الكويت ص٤١ .

المقال منشور فى مجلة (صوت الإسلام) كانت تصدر فى كرادشى (جمعية الفلاح) عدد نوفمبر ١٩٦١م .

القرآن الكريم أساس الإصلاح:

نشرت مجلة (الشهاب) دروس عبدالحميد بن باديس فى تفسير القرآن، التى اتخذ صاحبها لها عنوانا هو (مجالس التذكير فى تفسير كلام العليم الخبير) وقد استمرت هذه الدروس تلقى كمحاضرات أكثر من عشرين عاما. وهى شاهد على غزارة علم صاحبها من جهة وواسع معرفته بأحوال مجتمعه وحاجاته الفكرية والاجتماعية، فى الوقت نفسه فهو لم يكن يعتسف تأويل آيات الكتاب؛ ليحملها ما لا تحتمل وينطقها بما يريد ويتجاهل دلالة الآية البينة الصريحة، كما أنه لم يكن يغرق فى تفاصيل الألفاظ والحروف والمعانى الجزئية؛ حتى تضيع الحكم والمقاصد والأصول العامة التى توحيها هداية القرآن، بل كان التفسير يحقق أهدافه العلمية التربوية الاجتماعية متضافرة متساندة. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمى فى تقديم ما نشر من (تفسير ابن باديس) إلى القراء، وكان قد خلفه على رئاسة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين):

وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات فى إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتى بتلك المعجزات فى كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالى من العقول التى فهمته، وذلك النمط السامى من الهمم التى نشرته وعممته فإن القرآن لا يأتى بمعجزاته ولا يؤتى آثاره فى إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العلمى نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم. أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحى وبهذا الأسلوب التقليدى من التفسير اللفظى؛ فإنه لا يفيدهم شيئا ولا يفيد لهم شيئا، بل يزيدهم بعدا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا فى التغلب عليهم.

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن، حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هدية وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه وصرفوها عن حكمه وأسراره.

ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور (محمد عبده) ولكنه مات فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره (محمد رشيد رضا) فكتب فى التفسير ماكتب ودون آراء الإمام فيه ومات قبل أن يتمه . . فانتهت إمامة التفسير بعده فى العالم الإسلامى كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر بل وبالشمال الإفريقى عبد الحميد بن باديس [1].

(١) من تقديم الشيخ محمد البشير الإبراهيمى لكتاب تفسير ابن باديس.

وبالطبع يتكلم الشيخ فى تقديمه لما وصله من تفاسير منشورة بالعربية خلال حياته؛ إذ لم يكن فى طوقه أن يحيط علما بما نشر فى شتى ديار الإسلام بمختلف اللغات .

كذلك اختار ابن باديس من أحاديث رسول الإسلام ـ صلوات اللـه وسلامـه عليه ـ ما والى شرحه بمجلة (الشهاب) كما قدم صورا معبرة لشخصيات من السلف تحمل القدوة والعبرة (1) .

وهكذا استخدم ابن باديس (المصادر السلفية) الأصلية من كتاب وسنة وتاريخ صحيح فى تصحيح المفاهيم لدى المسلمين المعاصرين ، وإعادة صياغة النهج السلفى فى التفكير الإسلامى .

وقد سبق للشيخ محمد عبده أن ألح على وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما فى أحكام الدين ، وعدم تقليد الرجال والانسياق مع العرف .

وبهذا النهج وحده نطهر أفكارنا وأعمالنا من البدع والأباطيل فى مجال الاعتقاد وفى مجال العمل .

وقد صادم محمد عبده بدعوته هذه ما كانت عليه الطرق الصوفية دون أن يسميها .

وربما بقيت فى نفسه آثار تقدير لخال أبيه الصوفى الذى حببه فى علوم الدين وقربها إليه ، يذكر الشيخ بقلمه : «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفها إلى ينابيعه الأولى واعتبارها من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمـــر الثانى: إصلاح أساليب اللغة العربية» . ويبدو أن هموم الشيخ محمد عبده كانت تدور حول (الخلافات الفقهية) والمآخذ على المصنفات الفقهية المتأخرة وطريقة تعليم الفقه فى الأزهر أكثر مما كانت تنصرف إلى الصوفية وطرقها ، فمن الأولى عانى طالبا وعالما .

---

(1) انظر لعبد الحميد بن باديس «من هدى النبوة» ، «رجال السلف ونساؤه» وقد نشر الكتابين تلميذ بار بالشيخ ، الأستاذ محمد الصالح رمضان .

ومن ثم كانت (السلفية) عنده ومحاربة التقليد تعنى بصفة أساسية الإنكار على التقليد المذهبى، وما اقترن به من جمود وتخلف عن الواقعين العلمى والاجتماعى والعمل على ربط الناس دائما بالكتاب والسنة ويتجلى هذا فى قوله: «وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم».

أما ابن باديس فقد قامت دعوته فى الجزائر حيث لايوجد خلاف مذهبى، بل غالب أهلها مالكيون وأقلهم أباضية، ولا توجد مؤسسة للتعليم الدينى كالأزهر لها رسوخها وآثارها بإيجابياتها وسلبياتها أيضا.

ومن ثم كانت مشكلة ابن باديس الأولى فى دعوته الإصلاحية هى الطرق الصوفية، وكانت سبيل محمد عبده لإصلاح العقول والقلوب وربطها مباشرة بالينابيع الصافية للإسلام هى السبيل نفسها التى اختارها ابن باديس بعده، وهى تفسير القرآن: كتاب الله الذى ينقاد إليه المسلمون أجمعون دون خلاف.

التقى عبد الحميد بن باديس ومحمد عبده فى ميدان الدعوة للإصلاح الإسلامى فقد عنى كلاهما بتصحيح المفاهيم والعقائد، واعتمد كلاهما على تفسير القرآن لتطهير العقول من ركام التقاليد البالية والبدع والضلالات، واهتم كلاهما بالتربية والتعليم وإنشاء المدارس للنهوض بالأجيال القادمة من أبناء المسلمين، وقد كان محمد عبده معروفا فى الجزائر وبخاصة بعد انتشار (مجلة المنار) هناك وبعد زيارته للجزائر فى آخر أيامه، ولكن ذلك لا يعبر عن متابعة وتبعية، وإنما يعبر عن استجابة فطنة من الرجلين للظروف القائمة المتشابهة فى بلديهما ولمؤثرات العصر المحيطة بهما، ولا بأس على كل حال بالتأثر الطبيعى المحمود من اللاحق بتجربة السابقين بإحسان.

وقد اقترن اسم محمد عبده (بالجمعية الخيرية الإسلامية) ومؤسساتها التعليمية والإصلاحية، وإن تباين نشاطه فى ذلك نوعا ودرجة عن نشاط ابن باديس فى (جمعية العلماء الجزائريين) وكان ابن باديس أشد صرامة ودأبا فى محاربة (الطرقية) بينما عَنِيَ محمد عبده بصفة أساسية بمقاومة الجمود الفقهى والتعصب المذهبى.

ويبدو فى جلاء من شخصيتى ابن باديس ومحمد عبده ونشاطهما أن الأول كان أكثر (حركية).

لقد كان محمد عبده رجل بحث وعلم وتأليف وتدريس بوجه خاص، ولم يكن رجل عمل شعبى منظم مستمر مثل ابن باديس، قد يلقى محمد عبده محاضرة أو درسا لهما بعض الأثر الشعبى، لكن أثرهما الأكبر إنما يتناول المثقفين أو المستنيرين بوجه خاص، ثم إنه لا يصبر على تعهد الغراس وإنضاجه وتوفير كل الظروف لإنباته نباتا حسنا ثم على جمع الثمار وإحسان عرضها والتغذية بها ومواصلة الزرع والاستثمار. . كان محمد عبده يكتفى بمؤسسة مركزية فى عاصمة كبرى يجتذب بها بعلمه وخلقه وحسن حديثه وكياسته الكبراء والوجهاء والممولين، لكن لا يصبر على (حركية) (العروة الوثقى) منظمة جمال الدين الشعبية العالمية.

أما ابن باديس، فعلى الرغم من أن أسرته كانت من سراة قومه، فإنه كان فى شخصه من ذلك النوع من الرجال، الصابر على العمل معظم اليوم والليلة الدائب على الحركة المؤمن بالعمل الشعبى فى قاعدته العريضة الواسعة بين جماهير الناس وعامتهم، القدير فى ممارسة ذلك العمل ومطالبه ومتاعبه ومصاعبه.

إن محمد عبده يعطينا فكراً وعلماً، قد تثمر جهوده مؤسسات تنتهى بحياته غالبا أو قد تستمر قليلا بعد وفاته. إن مزاجه هو مزاج العالم الذى لا يستطيع أن يعيش طويلا خارج مكتبته ومكتبه، ومجلسه حوار مع الخاصة لكن ليس فى طوقه أن يعايش الجماهير طويلاً أو يصبر على الحركة الشعبية المستمرة ولو فى مجال الإصلاح الفكرى البعيد عن السياسة، وهو الذى تعقدت نفسه من العمل السياسى بعد ما كان للثورة العرابية من عواقب وخيمة مريرة لا تُنسى، ولم يجذبه إلى النشاط الجماهيرى الذى قد يتصل بالسياسة فى مجالها العام، الذى يتناول العمل على مكافحة الاحتلال الأجنبى على الأقل - إلا شخصية جمال الدين (النارية) الطاغية التى ينصهر معها حين يحاورها.

أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها، وقد جاء نشاطه فى جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة، إلى جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهته السريعة الثاقبة فى الوقت نفسه.

بل إن دروس ابن باديس فى تفسيره للقرآن أو فى غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته - فضلا عن جهوده العلمية - لتمثل حركيته وحرارته خير تمثيل، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقا متوهجا من النور

والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصى مع المؤمنين أن ينفث بعضهم فى بعض روح العمل الاجتماعى الحركى [1].

دعاة الإصلاح يلتقون

لقد كان محمد عبده يؤمن بالأثر الذى يحدثه التعليم فى التغيير والتحويل وبخاصة حين يرى فشل الجهود فى مجالات العمل العام، وهو صاحب فكرة المدرسة التى يختار لها نجباء الناشئين من مختلف البلدان الإسلامية وتقام فى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرها، وفيها يربى محمد عبده وأستاذه جمال الدين طلاب المدرسة على منهج قويم يضعانه، ويعدانهم لريادة الإصلاح فى بلدانهم ومجتمعاتهم:

«فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار».

ولعل هذه الفكرة التى استلهمها محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده فى إنشائه: «مدرسة الدعوة والإرشاد» بمصر من بعد.

ومما يقول أحمد أمين عن محمد عبده فى هذا الصدد [2]:

. . . كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس حتى يصلح النفوس من هذا الطريق بالتوسع فى التاريخ الإسلامى، وبث مبادئ الدين الصحيح، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم . . فلما يئس وجّه همته إلى . . الجمعية الإسلامية يضع التلاميذ مناهج دراستهم ويؤلف لهم تفسير (جزء عم).

وهكذا كان دائما يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التى يريدها.

وعنى محمد عبده إلى جانب الدعوة إلى «تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى . . .» بالدعوة إلى «إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس . . .».

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٢٣، ونص تعبير ابن باديس «روح الاجتماع الشورى فى كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد».

(٢) انظر ـ أحمد أمين: زعماء الإصلاح ص٨١ وما بعدها.

وقد اضطلع بتعليم الإنشاء فى بيروت، ونشر مقامات البديع الهمذانى، ونهج البلاغة مع شرحه لهما.

وفى مصر كان يدرس البلاغة على النمط الذى يربى الذوق ويرقى بالأسلوب وكان يقرأ «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجانى وحث على نشرهما: وأسس «جمعية إحياء الكتب العربية» سنة ١٣١٨هـ برئاسته، وافتتحت أعمالها بنشر «المخصص» فى اللغة، وعهد إلى الشيخ سعد المرصفى بتدريس كتب الأدب فى الأزهر من أمثال الكامل للمبرد والحماسة لأبى تمام، ولم يكن ذلك معروفا هناك من قبل.

ونجد عبد الحميد بن باديس قد اتجه كذلك إلى العناية بالتعليم الإسلامى وتعليم اللغة العربية وإنشاء المدارس فى طول الجزائر وعرضها، فى مدنها وقراها، وجبالها وصحاريها، وسهولها ووديانها، وكان ابن باديس «معاصرا» فى استعمال أداة «التربية والتعليم» لتحقيق مقاصده، وقد أدرك قيمة «المدرسة» فى خدمة الأهداف العقيدية الفكرية على المدى الطويل، وكان «معاصراً» فى إدراك مايحتاجه الشعب الجزائرى بالذات فى ذلك الوقت الذى يهدده فى خطر «الابتلاع» و «الاحتواء» من قبل السلطة الاستعمارية، فقد واجه ذلك الشعب مخططات مرسومة بعناية لتذويبه تماما فى فرنسا: أرضا وشعبا وعقيدة وثقافة، منها مخططات سياسية تجعل غاية أحلام الشعب الجزائرى مقاعد معدودة على الأصابع فى مجلس النواب الفرنسى فى باريس، ومنها مخططات تشريعية تغرى بالتخلى عن شريعة الإسلام فى نظام الأسرة «الأحوال الشخصية» مقابل الوعد بإعطاء حقوق سياسية انتخابية للمواطن الجزائرى بزعم وجوب التسوية فى الواجبات إن أريدت التسوية فى الحقوق، واقترن ذلك بإصدار ظهير سنة ١٩٣٠م-١٣٤٩هـ فى المغرب المحمية الفرنسية لتحقيق انحسار شريعة الإسلام على قطاع ضخم من المسلمين المغاربة وإخضاعهم لأعرافهم العرقية (البربرية).

ثم كان من تلك المخططات الرامية إلى تذويب الشخصية الجزائرية: مخططات تعليمية ثقافية تعمل على أن تكون فرصة التعليم الوحيدة المتاحة للجزائريين هى فى الالتحاق بالمدارس الحكومية التى تعلم كل شىء بالفرنسية، وعلى أن يُضيِّق بشدة على المدارس العربية الخاصة والمدارس القرآنية حتى تنقرض.

وهكذا تصير الفرنسية مع الزمن لغة التعليم والثقافة بعد أن صارت لغة الإدارة، بل تصير لغة الآباء والأمهات ولسان الوليد منذ يتعلم النطق، ولغة الشعب الجزائرى كله. وقد صدر قرار فى سنة ١٩٣٨م - ١٣٥٧هـ حظر تعليم اللغة العربية فى المدارس

الحكومية واعتبرها لغة أجنبية، والمدارس التى رأت السلطة الاستعمارية أن تجعلها مدارس تعلّم فيها العربية إلى جانب الفرنسية كانت محدودة العدد من جهة، وتراجعت فيها مكانة اللغة العربية من جهة أخرى، وكانت غايتها تخريج عدد من (الموظفين) تحتاج إليهم الترجمة فى الإدارة - إلى أن (تتفرنس) الجزائر تماما أو تحتاج إليهم الوظائف التى لها علاقة بالأحوال الشخصية والمساجد.

وهكذا جدّ الاستعمار الفرنسى فى إحكام الحصار على اللغة العربية وبسط السبل لفرض اللغة الفرنسية حتى تغدو لغة ا لحياة اليومية للشعب الجزائرى.

كما عمل على تفتيت المقومات الذاتية للفرد والأسرة والمجتمع، ومن ثم يستحكم (الإطارالسياسى) الذى تفرضه السلطة الاستعمارية على الجزائر بعد أن يصير المحتويان الاجتماعى والفكرى للشعب هشين قابلين لإعادة الصياغة والتشكيل.

وهكذا تميزت حركة عبد الحميد بن باديس للإصلاح الإسلامى بتلك الجهود التعليمية التى استهلت باضطلاعه هو بالتعليم فى الجامع الأخضر بقسنطينة وانتهت بتلك الشبكة المتشعبة من المدارس فى مختلف أنحاء القطر الجزائرى المترامية.

وقد ارتبطت تلك الجهود التعليمية بالدعوة الشعبية العامة للإصلاح الإسلامى التى اضطلعت بها (جمعية العلماء) ارتباطا وثيق العرى وتشربت مبادئها وأخلصت فى العمل لها فى مجال التربية والتعليم وصارا صنوين لايفترقان عقيديا وفكريا وإن اختص كل مجال بجهازه من ناحية التنظيم [١].

وهكذا وعى ابن باديس آراء دعاة الإصلاح الذين سبقوه، ولاسيما جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، وأيقن أن طبيعة الواقع الجزائرى، وتسلط الاستعمار الفرنسى القاهر سوف يجعلانه فى نهجه أقرب إلى مآثره محمد عبده من الفكر والإرشاد والتربية والتعليم . . . لكن ابن باديس كان «حركيا شعبيا» فى دعوته الإصلاحية يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة، ويحدثهم بما يفهمون فى المساجد والمجامع، وبينما يخاطب القراء المتعلمين بقلمه فى صحافته، وينشئ المدارس متطلعا إلى جيل قادم ومؤمن مستنير فى المستقبل، نراه لا يغفل الحاضر القائم، ويحرص على عدم

---

(١) لتفصيل تلك الجهود التعليمية بوجه خاص انظر كتاب: تركى رابح: عبد الحميد بن باديس وجهوده فى التربية والتعليم.

الانحراف فى تيارات السياسة العاتية فى صراع غير متكافئ أو فى وقت غير موات، لكنه لا يتقوقع ولا ينكل.

إذا كان لابد من مواجهة الأعاصير الهوج، وكان ذلك ضروريا أو ممكنا، وكان يرى فى جهوده البناءة فى تدعيم الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية خير ظهير للمطالبة بحقوقه السياسية ويرى فى العمل لنيل هذه الحقوق السياسية المهضومة وتأييد الساسة العاملين لذلك خير تأكيد للمقومات الإسلامية العربية لهذا الشعب.

وبعـــد،

فلقد كان ابن باديس بحق داعية موفقا للإصلاح الإسلامى الجزائرى وقائدا موهوبا للحركة ومنظماتها، ونعمة من الله سيقت إلى شعب الجزائر المسلم العربى فى محنه وشدائده، وقبسا من نور الإسلام المبين أشرق خلال حوالك الظلمات، واستجابة واعية ملهمة للظروف القائمة فى البلاد ومعالجة حكيمة لها بهدى الإسلام فى إخلاص ورشد.

وقد يلتقى ابن باديس مع غيره من دعاة الإصلاح الإسلامى بالمشرق العربى أو فى أية بقعة من ديار الإسلام، ولكن يبقى له مع ذلك طابعه المتفرد، وتبقى لحركته خصائصها.

إن إلقاء الضوء على سير الدعاة والمصلحين وتاريخ الحركة الإسلامية فى مختلف حلقاتها وأزمانها وأماكنها بإيجابياتها وسلبياتها تنويرا وتبصيرا للعاملين للإسلام فى الحاضر والمستقبل، ولاسيما ما كان قريبا إلى عصرنا من حلقات تلك الحركة المتجددة يقول الحق تبارك فى علاه: ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود الآية ١١٦]

ويقول أيضا: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران الآية ١٠٤].

ومن واجب المؤرخين والمفكرين والدعاة أن يتضافروا على هذا العبء الجليل: كل من زاويته، وعلى قدر مايستطيع الإسهام به.

رحم الله ابن باديس، وأجزل مثوبته بقدر ماجرى على يديه من خير لأمته، ومن تخرّج من تلاميذه، ومن واصل الدعوة إلى الإسلام بعده منتفعا بما قدمه من قدوة لا ينقص ذلك من أجور هؤلاء كلهم شيئا (1) . يقول الحق جل فى علاه :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران الآيات ١٣٧ : ١٣٩] .

(١) فى هذا الصدد انظر :
١- الرسالة الإسلامية العدد ٢٧ صفر ١٣٩٢هـ .
٢ - عبد الحميد بن باديس ودعوته الإصلاحية - محمود العيطة ص٤٩ ومابعدها .
٣ - مجلة دعوة الحق - المغرب - ص٩ عام ١٩٦٩م د/ الطاهر أحمد.
٤ - مجلة الصراط - ١٩٣٣م، وملحق جريدة الشعب الجزائرية ١٩٧٣م ص١١ .
٥ - ملحق جريدة الشعب الجزائرية المرقم ٢٢٩٩م عام ١٩٧١م ص٦٣ محمد سعيدى

الباب الخامس

مفهوم التربية عند ابن باديس

- مقترحات ابن باديس لتغيير المنهجية فى التربية والتعليم.
- مجهودات ابن باديس التعليمية.
- المحاور العلمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء.
- موقف الاستعمار الفرنسى من مجهودات ابن باديس.
- التربية الأخلاقية عند ابن باديس.

مفهوم التربية عند ابن باديس

الشيخ عبد الحميد بن باديس بلا شك «مرب عظيم» استطاع أن يربى أجيالا من الجزائريين، كانت أساسا لنهضة الجزائر العربية الإسلامية الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية، وأن هذه التربية لاتكون مجدية إلا على أساس من تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق.

ورأي ابن باديس أن الأخلاق هى التى تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع؛ لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين، يقول فى كلمة له:

«إن الخلق القويم لابد أن يكون نتيجة تطابق الباطن مع الظاهر» واعتبر ابن باديس أن مصدر هذا الخلق القويم هو القرآن الكريم، ولهذا سعى إلى نشر وتعليم القرآن من أجل تحصين المجتمع الجزائرى المسلم وإعداده بتربية الناشئة والكبار تربية إسلامية كاملة، إذ إنه كان يرى أن التعليم مهمة سياسية على المدى البعيد، إنها مرتبطة تماما مع المهمات الأخرى الثقافية والاجتماعية، كما اعتبر أيضا التفقه فى الدين أمراً ضروريا لأنه يحول دون نجاح مؤامرات الاستعمار للقضاء على الثقافة الإسلامية، وفى هذا الصدد يقول ابن باديس مخاطبا الشعب الجزائرى:

« . . . أيها الشعب المسلم الجزائرى الكريم! تالله لن تكون مسلما إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، ولن تفقه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه، ولهذا فرض الله على كل شعب إسلامى أن تنفر منه طائفة لتتفقه فى الدين، وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة.

أما أبناؤك الشبان حملة القرآن فقد هبُّوا هبة رجل واحد لطلب العلم والتفقه فى الدين، يحملون الإيمان فى قلوبهم والقرآن العظيم فى صدورهم، والروح الجزائرية

المسلمة فى لحومهم ودمائهم، لا يقصدون إلا أن يتعلموا فيعلموا، ويتفقهوا فيفقهوا، ولا يرجون من ذلك إلا رضا الله ونفع عباده».

إن اقتناع ابن باديس بأهمية نشر وتقوية الوازع الدينى والخلقى فى نفسية الشعب الجزائرى المسلم هو الذى جعله ينادى بضرورة حفظ القرآن الكريم والتدبر فى معانيه، والعمل به اقتداء بالسلف الصالح، لأن القرآن هو الذى «كوّن رجال السلف، ولا يكثر عليه أن يكوّن رجالا فى الخلف لو أحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه» ولابد إذن أن «نربى تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم، وغايتنا التى ستحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفى سبيل تكوينهم تلتقى جهودنا وجهودها».

ومادام الفرد المسلم هو محور العملية التعليمية عند ابن باديس والتى أساسها التثقيف الإسلامى لمحاربة التغريب والفرنسة فإن صلاح المجتمع فى رأيه، لا يكو ن إلا بصلاح الفرد، وإصلاح الفرد لا يكون إلا بتطهير نفسه وعقله من ثقافة الغرب.

وفى هذا المعنى يقول ابن باديس:

«فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى صلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة، فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع».

إن هدف التربية إذن عند ابن باديس هو هدف أخلاقى وهو تطهير النفس، إنه «تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

وقد حلل أحد البُحَّاث الهدف التربوىّ عند ابن باديس إلى عدة نقاط يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولا: تستهدف التربية عند ابن باديس تأهيل الشعب العربى الجزائرى وتنمية قدراته العقلية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية والسياسية لكى يتوصل بالنتيجة إلى حياة أفضل فى مجتمع أفضل.

وفى هذا الصدد يقول ابن باديس: «على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا ويتزودن بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة».

ثانيا: وتستهدف التربية عند ابن باديس الدفاع عن الشخصية الجزائرية، والحفاظ على خصوصية الشكل التاريخى الجزائرى الذى لا علاقة أصلا لفرنسا به لا من قريب ولا من بعيد»

يقول ابن باديس: «الأمة الجزائرية المسلمة أمة متكوّنة موجودة، كما تكوّنت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة فى الدنيا، ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هى بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها، وفى أخلاقها، وفى عنصرها، وفى دينها. لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائرى».

ولقد ساهمت آراء ابن باديس أولا فى توضيح مكامن الخطر السياسى والاقتصادى والثقافى.

وساهمت ثانيا فى إعداد جيل قادر على المواجهة والتحدى فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

(أ) فمن الناحية السياسية: عمل ابن باديس بنشاط مكثف من أجل الدفاع عن وحدة البلاد، ومحاصرة محاولة التفريق بين أبناء البلد الواحد. وفى هذا الصدد يقول: «لقد كتب أبناء يعرب .. آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون [الطويلة] بما أراقوا من دمائهم فى ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم فى مجالس الدرس لخدمة العلم .. فأى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب، والأمانى الخوادع.

يا عجبنا لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوى؟ كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة فى اتحادهم وقوة لرابطتهم».

(ب) ومن الناحية الاقتصادية: عمل ابن باديس على تربية الجزائريين على التقشف والمعاناة، وحصن نفوسهم وخاصة الفقراء منهم ضد محاولات الإغراء التى يبذلها الفرنسيون، وفضح الرأى الفرنسى الذى يصور أن حاجة الجزائرى محصورة بالحصول على الخبز، وقد ركز ابن باديس على هذا الجانب كثيرا حيث قال: «نحن المسلمين ربينا

تربية إسلامية على إلفة الجوع، والتقليل من الأكل والاقتصاد على قدر الحاجة، فطعام الواحد منا يكفى اثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، بهذه التربية استطعنا أن نبقى وأن نعيش . . . وقد جهل قوم الفرنسيين هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم جد عالمين بما الأمة فيه من جوع وفاقة ـ أننا قوم لانريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطوننا مَهَّدنا ظهورنا . . . لا ياقوم، إننا أحياء، وإننا نريد الحياة، وللحياة خُلقنا، وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكلها ضروريات فى الحياة، ونحن نفهم جيدا ضرورياتها للحياة».

(جـ) ومن الناحية الثقافية: تمكن ابن باديس بواسطةالتعليم والتربية الدينية عن طريق تفسير القرآن الكريم وتدبر معانيه من خوض معركة قوية ضد القرارات الفرنسية التى استهدفت القضاء على اللغة العربية. وفى هذا الصدد يقول:

«اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة، وهى الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهى وحدها المقياس الذى نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتى بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهى وحدها اللسان الذى نعتز به، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد، وما فى العقل من أفكار، وما فى النفس من آلام وآمال» فهى إذن خطر على فرنسا، ولهذا فقد منعت تعليمنا بواسطتها.

ثالثا: كان لابن باديس دور تاريخى مهم فى محاربة الأفكار الفاسدة التى تنشرها بعض جماعات الطرق باسم الإسلام، وخاصة وأن لهذه الطرق ومشايخها نفوذا كبيرا عند الأهالى بسبب ارتباطها بالإسلام؛ لذلك رأى ابن باديس ضرورة المباشرة بتربية مضادة توصل إلى الجزائريين الإسلام الصحيح، وتطرد من نفوسهم الإسلام المشوه الذى أثقل «بالخرافات المخزية» والذى يعتبره ابن باديس . . لا يمت إلى توحيد محمد بغير صلات بعيدة، فقد حلت محله باطنية باطلة وعبادة للأولياء والأضرحة استغلت بمهارة من قبل مشايخ جاهلين موزعين لتمائم وتعاويذ عن طمع فى الغالب».

إن الأوضاع الطرقية فى نظر ابن باديس «بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو من الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ، وأولاد الشيخ، إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال، ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم، وغير ذلك من تلك الشرور».

ولهـذا فـقـد شن ابن باديس حـربـا شـعـواء ضـد الطرقـيـة والطائفـيـة لكى يخلص جماهير الشعب من خرافاتهم وتدجيلهم واستغلالهم، لكى تصبح عقيدة الجزائريين سليمة صافية من كل البدع والضلالات والخرافات والشعوذات، وقد كانت حربه ضد جماعات الطرق قوية وعنيفة مثل حربه ضد الاستعمار الفرنسى الذى حاول أن يمنع الجزائريين من دراسة أصول دينهم وتاريخهم الإسلامى، ولغتهم العربية.

من هذا المنطلق كان الإطار التربوى الذى وضعه ابن باديس هو إطار هدم وتحصين:

(أ) هدم ما تسرب إلى العـقلية الجزائرية من ثقافة تدفعها إما للخضوع للبدع والأباطيل أو للقبول بالذوبان فى حضارة الغرب.

(ب) تحصين للفرد فى مواجهة تغريبه وتأمين قدرته على الصمود ضد التغريب وضد البدع.

يقول ابن باديس: «نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا فى غير أحضاننا ينكرون ـ وربما عن غير سوء قصد ـ تاريخنا ومقوماتنا، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا فى غيرنا، وكنا نرد عليهم فى كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر الخاطئة».

مقترحات ابن باديس لتغيير المنهجية فى التربية والتعليم

وحتى يستطيع ابن باديس تحقيق الأهداف التربوية المرجوة والتى بينها محاربة الأفكار الفاسدة والتغريب، فقد اقترح جملة من التغييرات تضمنت أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرقه، وكذلك بعملية إعداد المعلمين، وقد لخصها أحد البُحَّاث فى الآتى:ـ

١ـ **اللغة العربية**: ويشترط فى تدريسها تطبيق قواعدها على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة، وأما قراءتها بلا تطبيق ـ كما هو يجرى حاليا ـ فتضييع وتعطيل وقلة تحصيل.

٢ـ **الأدب العربى والإنشاء**: يعلم حسن الأداء فى القراءة وإلقاء الكلام.

٣ـ **العقائد**: ويجب أن تؤخذ مع أدلتها من آيات القرآن الكريم، فإنها وافية بذلك كله، فأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ـ آراء علماء الكلام ـ فإنه من استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير.

٤ ـ **الفقه**: ويجب أن يقتصر على المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى إلى ذكر بعض أدلتها.

٥ ـ **أصول الفقه**: مسائل مجردة ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية لتحصل لهم، من هذا ومن ذكر المسائل الفقهية كما تقدم، ملكة النظر والاستدلال.

٦ ـ **التفسير**: هنا يرى ابن باديس عرض «تفسير الجلالين» على المتعلم بشرط أن يشرح الأستاذ الأشياء التى تحتاج إلى شرح من مفردات ومعان غامضة.

٧ ـ **الحديث**: وطريقة تدريسه هى الطريقة نفسها لتدريس التفسير.

٨ ـ **التربية الخلقية**: يعتمد فى تدريسها على آيات وأحاديث وآثار السلف الصالح.

٩ ـ **التاريخ الإسلامى**: يدرس باختصار.

١٠ ـ الحساب .

١١ ـ الهندسة.

١٢ـ الفلك.

١٣ـ مبادئ الطبيعة.

١٤ـ الجغرافيا بجميع أقسامها.

هذا كله بالإضافة إلى المنهج المعروف للتعليم العام، فقد اقترح ابن باديس مناهج خاصة لكل مجال من مجالات التخصص، ففى إعداد مجال المعلمين ـ مثلا ـ اقترح المواد التالية:

١ ـ التوسع فى دراسة العلوم التى يقومون بتدريسها بعد تخرجهم.

٢ ـ دراسة كتب التربية وعلم النفس.

٣ ـ التربية العملية أو التمرين العملى على التدريس بالقيام به فعلاً.

أما فى مجال القضاء والقانون، فقد اقترح ابن باديس تدريس المواد التالية:

(أ) فقه المذاهب.

(ب) الفقه العام.

(جـ) دراسة الآيات والأحاديث المتعلقة بالأحكام.

(د) الحساب.

(هـ) علم الفرائض.

(و) علم التوثيق .
(ز) الفقه المقارن أو الاطلاع على مدارك المذاهب .

ولأن ابن باديس كان مربيا بالدرجة الأولى فلم يكتف فقط بتقديم المتغيرات المنهجية ، بل إنه كان يمارس العمل التربوى نفسه على مستويين :

الأول: مستوى دينى لغوى فى المسجد (الجامع الأخضر) بقسنطينة .

الثانى: مستوى مدرسى ممزوج بصبغة دينية ـ لغوية ـ فى (مدرسة التربية والتعليم الإسلامية) بقسنطينة .

وكان ابن باديس يقوم بهذا العمل التربوى التعليمى للجيلين .

أولا: جيل الصغار ، وهو على نوعين :

(أ) نوع يتابع تعليمه اليومى فى المدارس الفرنسية ، ثم يأتى إلى ابن باديس ليتعلم مبادئ اللغة العربية والدين .

(ب) أما النوع الثانى فهو لايذهب إلى المدارس الفرنسية ، بل يتلقى كامل تعليمه على يد ابن باديس .

ثانيا: جيل الكبار ، كان يعلمهم ابن باديس القرآن الكريم وتفسيره وتجويده ، والحديث النبوى والفقه والأخلاق ، واللغة العربية وآدابها ، والمنطق والرياضيات .

وبالإضافة إلى هذا كله كان للمرأة العربية الجزائرية حظ كبير فى تفكير وآراء ابن باديس التربوية حيث ساعد على فتح مدرسة خاصة تعلم الفتيات «تعليما دينيا صحيحا ، يتفق وما تصبو إليه من اقتران ذلك التعليم بالحشمة والفضيلة والعفة والصيانة ، ونفض تلك الأسمال من العرف الذى يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة ، ومن كل ما يؤهلها لأن تكون فتاة جديرة بالحياة» .

وأيضا من آراء ابن باديس التعليمية ضرورة التوافق والانسجام بين العلم والعالم والتعليم ، بمعنى التكامل بين العناصر الثلاثة وصلاحيتها للإنسان المسلم .

أما صلاح العلماء عند ابن باديس فهو أمر ضرورىّ ؛ لأن فساد العلماء أخطر وأسوأ بكثير من فساد المناهج وطرق التدريس ، يقول : «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم ، فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح ، صلح الجسد كله ، وإذا فسد ،

فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام، وعلمهم به، وإنما يصل هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود فى العلم وابتداع فى العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذى يطبع شخصيه المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فاذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم».

ولهذا كان لدور التربية والتعليم، ولجهود ابن باديس فى هذا المجال دور كبير فى تعزيز ثقة الجزائريين فى أنفسهم التى كانت شبه منهارة آنذاك، ولعل مايريده ابن باديس من جهوده التربوية وإصلاحاته العملية فى مجالى العقيدة والأخلاق هو:

١ـ نهضة شعبية قوية تُجلى شخصية الشعب الجزائرى، وتكشف مجد الماضى بما ينير طريق الحياة من جديد.

٢ـ انقلاب جزائرى يتركز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه (أصالة) الجدود، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف وهى فى طريق المستقبل الباسم.

٣ـ وأخيرا إن مايريده ابن باديس هو دعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الكريم والصحيح من السنة الشريفة.

وبعد،

فلعل ما تقدم يبين لنا بوضوح مدى أهمية الدور التربوىّ المميز لابن باديس، وكيف كان يؤمن بفلسفة تربوية تستمد أصولها من القرآن الكريم خاصة، ومن الفكر الإسلامى عامة، وقد لاحظنا أن جهود وتجربة ابن باديس التربوية كانت تشكل مواجهة ناجحة ضد الغزو الثقافى ومحاولة التغريب والتشويه التى يقوم بها الاستعمار وبعض الفرق المشبوهة أو بتعبير آخر، إن إيمان ابن باديس ـ كما رأينا ـ بأهمية نشر القرآن الكريم وتعليم الفضائل وأصول الدين عن طريق تربية الكبار والصغار تربية إسلامية شاملة هو من أجل تحصين المجتمع الجزائرى المسلم ضد الخرافات والشعوذة والطائفية والطرقية وضد التغريب الثقافى والفَرْنَسَة.

وقد جعل ابن باديس «المسجد والتعليم صنوان» مؤكداً على ارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة - فكما لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم».

وهكذا كانت آراء ابن باديس الصائبة ومفهومه الواضح والصريح بالنسبة للعلم ومتلقيه والتعليم ومناهجه، والعلماء ومدى صلاحيتهم.

مجهودات ابن باديس التعليمية

رغم تعدد جوانب شخصية ابن باديس إلا أن أبرز جوانبها هو الجانب التعليمى الذى ركز عليه ابن باديس معظم نشاطاته، إذ بدأ حياته العملية معلما فى تعليم النشء، وكان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر، ويقضى طوال نهار اليوم فى تعليم الأطفال علوم الدين الصحيحة وعلوم اللغة العربية فى مسجد سيد قموش، وكان لايستريّح سوى ساعة بعد صلاة الظهر يصيب خلالها قليلا من الطعام، ثم يواصل عمله حتى صلاة العشاء، ثم ينتقل إلى التدريس بالجامع الأخضر حيث يواصل دروسه التفسيرية للقرآن الكريم على شيوخ وكهول مدينة قسنطينة من التاسعة مساءً وحتى منتصف الليل، داعيا إياهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله مابهم، استنادا إلى الآية القرآنية الكريمة :-

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد الآية ١١]

وكانت أقوال ابن باديس دائما - تدعو إلى تشجيع العلم، ومن ذلك قوله «اللغة هى القوة».

ولعله يفصح هنا عن خطته الرامية إلى إعداد أجيال من الشباب المثقف ثقافة عربية حتى يواجه بهم سياسة فرنسا الرامية إلى تذويب الشخصية العربية الإسلامية فى الجزائر الفرنسية.

أولا : دعوة ابن باديس التعليمية

قضى ابن باديس دراسته فى جامع الزيتونة بتونس (١٩٠٨ - ١٩١٢م) ورجع إلى الجزائر، حيث بدأ جهوده التعليمية سنة ١٩١٣م وهومدرك تماما أن السبيل الوحيد لمقاومة الاستعمار ليست المناورات السياسية وإنما هو الجهد المنظم على امتداد الزمن فى سبيل تعلم اللغة العربية - وتحرير الأمة الجزائرية من الجهل، لذلك شرع بن باديس يجوب قرى وبلاد الجزائر داعيا لأفكاره ومبادئه مخاطبا مواطنيه، محاضرا فيهم معلما

لهم فى المساجد والنوادى التى ساهم وجماعته فى إنشائها ، معلنا ثورته التعليمية ضد الجهل .

ولعل الشيخ ابن باديس يشير إلى مواطن الداء لدى مواطنيه الذين يرزحون تحت الاحتلال الذى يحاول تذويب شخصيتهم ، وتفريق كلمتهم ليجردهم من مصدر قوتهم ، وكان ابن باديس يدعو تلاميذه إلى تجنيد مواطنيه .

(أ) نشاط عبد الحميد بن باديس التعليمى من المسجد :

وقد اتخذ ابن باديس من الجامع الأخضر مقرا لدعوته التعليمية ، وتمكن بعد عدة سنوات من إنشاء مكتب كان بمثابة نواة للتعليم العربى الابتدائى فوق مسجد سيدى (بومعزة) إلى أن نقله بعد ذلك إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التى تأسست سنة ١٩١٧م ثم انتقل هذا المكتب إلى مدرسة عصرية كبيرة تتسع لأكبر عدد ممكن من الأطفال الراغبين فى الدراسة العربية وعلومها .

(ب) إعداد ابن باديس للشباب :

ولما كان ابن باديس يعول على الشباب الجزائرى فى بعث الثقافة العربية وشخصية الجزائر العربية الإسلامية ، لذا دعا الشيخ ابن باديس سنة ١٩٣٣م جماعة من الشباب الأعضاء فى جمعية التربية والتعليم لتأسيس شعبة منهم باسم جمعية التربية الإسلامية ، كما خصص لهم يوم عطلاته عن العمل وهو (الأحد) لإعدادهم إعداداً ثقافيا باللغة العربية ، وقسمهم إلى مجموعتين .

الأولى : تتلقى تعليمها فى الساعة العاشرة صباحًا .

الثانية : تتلقى تعليمها فى الساعة الثامنة مساءً .

وحتى يعمم ابن باديس اتجاهه العربى الإسلامى والإصلاحى ، فإنه دعا مواطنيه إلى تأسيس جمعيات إصلاحية ـ على غرار جمعية التربية والتعليم بقسنطينة ـ فى كل بلد مذكرًا إياهم بارتباطهم المصيرى بدينهم الذى لن يبقى إلا بانتشار التربية والتعليم ؛ حتى تستيقظ الهمم المخدرة من قبل الطرق الصوفية أعوان الاستعمار .

وكان ابن باديس قبل دعوته الإصلاحية للشباب الجزائرى قد ساءه المسلك

الاستعماري التعليمي الذي أنسى شباب بلاده لغته ودينه وتاريخه، وقبح دينه وقومه، تاركًا إياه للحانات والمقاهي والشوارع.

ومن ثم كانت الجهود الإصلاحية لابن باديس وجماعته ممثلة في المدارس والجمعيات والنوادي التي انبثقت عن جمعية العلماء الفرصة لتكوين جيل من الشباب يؤمن بوطنه الجزائر العربية المسلمة.

ثانيا: كيف أعد ابن باديس طلابه

كان ابن باديس قبل إعداده للشباب الجزائري علميا يقسم طلابه إلى مجموعات جغرافية بحسب البلاد التي قدموا منها بهدف إحداث التعارف بين المجموعات وسهولة الاجتماعات بينها، كما كان يرأس كل مجموعة من هذه المجموعات عريف كان يخبر مجموعته بموعد الاجتماعات السياسية والاجتماعية، وكان الطلبة القدماء الذين تدربوا على فن الخطابة وكيفية طرْق الموضوعات يقومون بتدريب رفاقهم الجدد على المهمة نفسها، وكيفية مقاومة دعاية الطرق الصوفية وخرافاتها بالعودة إلى الكتاب والسنة، وكان ابن باديس يردد دائما: عمائمنا تيجان العرب.

ولعله كان يريد من وراء هذا القول إلى إظهار اقتداء جماعته بالحديث النبوي الشريف: «تعمموا فإن الشياطين لا تتعمم» وهذا يؤيد قولنا بانتماء العلماء إلى المدرسة السلفية.

ثالثا: الشروط الواجب توافرها في تلاميذ ابن باديس

اشترط بن باديس على من يرغب في الدراسة على يديه أن يكون حافظاً لربع القرآن الكريم على الأقل، وألا تتجاوز سنه الخامسة والعشرين وأن يحمل خطاب تزكية من كبير بيته أو عشيرته، وأن يأتي بفراشه وغطائه.

رابعا: نظام إشراف ابن باديس على طلبته

لم يكتف ابن باديس بجهده التعليمي، بل إنه أنشأ لجنة من أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية مهمتها العناية بالطلبة، ومساعدة المحتاجين منهم من الصندوق المالي الخاص بهذه المهمة، والذي كان يموله تبرعات المحسنين الذين تبرعوا بسخاء

بعدما شاهدوا جهود الشيخ ابن باديس من رعاية للطلاب من حيث : تعهده بتعليمهم وكفالته لإقامتهم وغذائهم ورعايته الصحية لهم ، والتى تمثلت فى اتفاقية مع مجموعة من الأطباء الجزائريين لرعايتهم الصحية بدون أجر ، وقد تمثلت هذه المجموعة فى الأطباء : ابن حلول وابن الموفق وزرقين .

خامسا: تعليم المرأة عن عبد الحميد بن باديس

تحمس ابن باديس إلى تعليم المرأة الجزائرية من وجهة نظر الشرع الإسلامى لها ولوظيفتها فى المجتمع ، ودورها فى الحياة ؛ لأن المرأة الجزائرية فى عصر ابن باديس لا تخلو من أحد أمرين :

الأمــر الأول : محرومة نهائيا من التعليم بحيث لا تعرف قراءة أو كتابة .

الأمر الثانى : متعلمة تعليما أجنبيا سطحيا يعمل على استخفافها بعروبتها وإسلامها وتقاليدها الاجتماعية ، فتصبح بالتالى متنكرة لأصلها وعروبتها وإسلامها ، وهذا ما يرفضه الشيخ ابن باديس فى المرأة الجزائرية خاصة والمرأة الإسلامية بصفة عامة .

لذا وجد ابن باديس نفسه يحبذ الجاهلة التى تلد أبناء للأمة يعرفون وطنهم وقوميتهم عن المثقفة ثقافة أجنبية وتلد للأمة الجزائرية أطفالاً يتنكرون لعروبتهم وقوميتهم ؛ لأن برامج المدارس الفرنسية تخطط لمسح المرأة العربية الجزائرية مسحا يمتد إلى الجيل الذى تربيه .

والواقع أن ابن باديس كان واعيا بأهمية تعليم المرأة الجزائرية وإن كان قد قصر تعلمها على الزاوية الدينية ، والدليل على اهتمامه بقضية تعلم المرأة الجزائرية أنه عندما أنشأت جمعية التربية والتعليم الإسلامية مكتبا لتعلم البنين والبنات فإنه أجاز التعليم المجانى للبنات سواء القادرات أو العاجزات منهن عن دفع النفقات . أما البنون فلا يعفى غير العاجزين عن دفع النفقات التعليمية .

سادسا: خصائص تعليم عبد الحميد بن باديس

باشر عبد الحميد بن باديس نوعين من التعليم :

(أ) التعليم الدينى المسجدى:

ويتشابه مع نظام تعليم المعاهد الأزهرية بمصر، والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب، وقد استخدم هذا النمط التعليمى طريقة الإلقاء والمحاضرة والحوار والسؤال فى أثناء دروسه فى الأدب العربى والحضارة الإسلامية والبلاغة وتفسير القرآن الكريم وشرح الحديث، وقد درس هذا النمط التعليمى لمجموعة من التلاميذ صاروا فيما بعد من معاونى الشيخ عبد الحميد بن باديس الذين أسند إليهم مساعدته فى التدريس.

(ب) التعليم المدرسى الأصلى:

وهو ذو صبغة دينية ولغوية، وقد أقبل عليه نوعان من الأطفال:

النوع الأول : الأطفال الذين تابعوا دراستهم بالفرنسية ويحضرون للاستزادة فى تلقى اللغة العربية والقرآن الكريم والدين.

والنوع الثانى: الأطفال الذين لا مكان لهم فى المدارس الفرنسية ويتابعون مناهج المدرسة العربية مع تركيز على الجانبين الدينى واللغوى، ويلاحظ أن الكتب المدرسية كانت فى معظمها من الكتب المقررة فى المدارس المصرية فى ذلك العهد.

المحاور العلمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء

سار ابن باديس والعلماء على محاور ثلاثة تمثلت فى جهودهم العلمية والدينية والثقافية.

فعلى المحور العلمى، كانت تدعو إلى العلم، ونشره عن طريق مدارسها ومساجدها ونواديها العديدة التى أسستها فى أنحاء الوطن الجزائرى.

أما على الصعيد الدينى، فقد بذلت جمعية العلماء جهودًا فى تعليم الدين الإسلامى وتطهيره من البدع والخرافات والعودة به إلى سيرة السلف الصالح الذى تبشر به الجمعية كحركة سلفية. أما العربية فهى لغة الدين، وهى والدين متلازمان، ومن ثم كانت الجمعية تركز فى دعوتها إلى تعلم الدين والعربية، وترغب فيهما الناس معًا.

أما عن المحور الثقافى، فقد تمثل فى تعميق الأخلاق الحميدة ـ التى دعا إليها الإسلام ـ فى نفوس طلاب مدارسها والقاصدين لمساجدها ورواد نواديها، ومحاربة الرذائل والأخلاق الفاسدة.

وكان ابن باديس وجماعته يهدفون بجهودهم على هذه المحاور إلى رفع مستوى مواطنيهم الجزائريين اجتماعيا ودينيا وعلميا وتوجيههم الوجهة الإسلامية، إلا أن هذه الجهود التى قام بها ابن باديس وجماعته لم تكن تتفق مع وجهة النظر الاستعمارية التى كانت ترمى إلى تذويب شخصية الشعب الجزائرى بمقوماته الأساسية.

ومن ثم كانت جهود ابن باديس أحد الأهداف الرئيسة التى يركز الاستعمار على ضربها والقضاء عليها.

موقف الاستعمار الفرنسى من مجهودات عبد الحميد بن باديس

لم تكتف الإدارة الفرنسية بالجزائر بإغلاق صحف العلماء وتحريم الوعظ عليهم فى المساجد التى تشرف عليها الإدارة الفرنسية، بل إنها شرعت فى اتخاذ القرارات التالية :

أولا : التقليل من منح الهيئات العلمية العربية المرخص لها ولمعلميها.

ثانيا : محاكمة المعلمين لعدم حملهم الرخصة.

ثالثا : إغلاق المدارس العربية الحرة.

رابعا : تعطيل النوادى الوطنية فلم تسلم هذه النوادى من محاربة الاحتلال بسبب دورها فى تهذيب الشباب وتوجيههم الوجهة العربية الإسلامية عن طريق نشاطاتها الدينية والثقافية والاجتماعية والرياضية، وقد انزعج الاحتلال لدور هذه النوادى، فبدأ فى محاربتها كما حارب المدارس من قبل والمعلمين أيضا (١).

وهكذا كان موقف الاستعمار الفرنسى من مجهودات ابن باديس، محاولات مستميتة وبكل الوسائل للقضاء على كل ما من شأنه خلق قاعدة وطنية صلبة مستنيرة، تعرف واجبها حيال دينها : الإسلام السمح القويم، وهويتها : العربية المسلمة.

التربية الأخلاقية عند ابن باديس

قدمت مجلة الجيش الجزائرية مجموعة حلقات بمناسبة الذكرى الواحدة والثلاثين لوفاة عبد الحميد بن باديس، خصصت واحدة منها حول التربية الأخلاقية، حيث قسمتها لمجالات ثلاث هى :

١ـ المنزل ٢ـ المدرسة ٣ـ المجتمع

---

(١) الاتجاه العربى الإسلامى، ودوره فى تحرير الجزائر ـ د/ نبيل أحمد بلاسى ص ٩٤ .

أولا : المنزل :

يلعب المنزل دورا كبير الأهمية فى تشكيل أخلاق الطفل وسلوكه العام، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية أن الأسرة هى المكان الطبيعى لتربية الأطفال وتزويدهم بالعوامل النفسية والثقافية اللازمة لنموهم وتقدمهم وحمايتهم من مساوئ الأخلاق ورذائلها، ولذلك يضع علماء التربية وعلماء الأخلاق المنزل فى المرتبة الأولى فى ناحية تربية الأطفال، وتوجيه أخلاقهم، إذ فى رحابه يفتح الطفل عينيه على العالم لأول مرة فى حياته، وفيه يلتقى بالمعلم الأول وهو الأم، وفيه يعرف معنى الخطأ والصواب، والحسن والقبيح، والحق والواجب، وفيه يتلقى المبادئ الأولية فى السلوك الاجتماعى، وفيه يتعلم اللغة، ويعرف معنى الملكية، كما يتلقى المبادئ الأولى للدين.

«كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه».

والمنزل من ناحية أخرى هو أول من يقدم للطفل التراث الاجتماعى الذى ورثه المجتمع عمن سبقه، فالعادات والتقاليد، والظواهر الاجتماعية المختلفة يتلقاها الطفل فى بيئته المنزلية.

الأولى قبل أن يذهب إلى المدرسة أو يخرج إلى المجتمع الكبير.

والشيخ عبد الحميد بن باديس فى منهجه الإصلاحى للمجتمع الجزائرى، وفى عمله التربوى لتلامذته يؤكد على ضرورة العناية بالأسرة باعتبارها النواة الأولى فى المجتمع لأن الأمة تتكون من مجموعات من الأسر، فإذا اعتنى كل فرد من أبناء الأمة بتعليم، أسرته، وتربيتها وتهذيبها ترتقى الأمة كلها بارتقاء مجموع أسرها، والعكس صحيح، يقول:

«على المرء أن يبدأ فى الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه، ثم من بعدهم على التدريج، وعندما يقوم كل واحد منا بإرشاد أهله، وأقرب الناس إليه لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر فى المجتمع، فمن الأسر تتركب الأمة، فعندما يعنى كل واحد بأسرته - ترقى الأمة كلها بارتقاء أسرها كارتقاء أى كل بارتقاء أجزائه، فيكون المعتنى بأسرته فى الوقت نفسه معتنيا بأمته» (١).

---

(١) التفسير ص ٣٧٦.

ونظراً لأهمية الأسرة من الناحيتين التربوية والأخلاقية على الناشئين حثّ الدين الإسلامى الحنيف على العناية بها باعتبارها النواة الأولى للمجتمع، ومن مظاهر هذه العناية الحث على اختيار الزوجة بكل دقة . . باعتبارها الأم التى ستلد الأطفال وتقوم بتربيتهم وترعاهم، وبالتالى ترعى الأسرة، وتعمل على حفظ تماسكها، يقول رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» ويقول أيضا : «إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : ومن خضراء الدمن يارسول الله؟ قال : المرأة الجميلة فى المنبت السيئ» .

فالإسلام يعنى بتربية الطفل أخلاقيا ونفسيا حتى قبل أن يولد، ولذلك يحث على التدقيق فى اختيار الزوجة، وقد أيدت الدراسات العلمية الحديثة قضية الوراثة الخلقية والأخلاقية بما لايدع مجالا للشك ؛ لأن الإنسان يكتسب خلقه من ناحيتين :

الأولى هى الوراثة ، والثانية هى البيئة ، ومن هنا وجبت العناية بمسألة اختيار الزوجة الصالحة لأنها المدرسة الأولى والمربى الأكبر للأطفال، فعلى صلاحها واستقامة خلقها وصحة بدنها يتوقف صلاح الطفل واستقامة خلقه وصحة بدنه والعكس صحيح .

ومن مظاهر تأثير المنزل على الطفل أنه المكان الذى يقضى فيه سنواته الأولى، التى يقول علماء التربية إنها السنوات الحاسمة فى حياته ؛ لأنها ستطبع سلوكه وأخلاقه فى مستقبل الأيام بحيث لا يستطيع أن يتحرر من تأثيرها عليه أبدا . «إن أكثر الأمراض الخلقية كالأنانية والفوضى، وفقدان الثقة بالنفس، وعدم الشعور بالمسئولية والرياء والنفاق إنما تنتشر جرثومتها الأولى فى البيت، وعسير على المدرسة والمجتمع استئصال هذه الجرثومة بعد أن تتمكن وتزمن» (١) .

وابن باديس من جهته يؤكد كثيرا على المنزل، ويراه المصنع الذى يصنع الرجال، وأن تربية الطفل أخلاقيا ودينيا إنما تتوقف على خلق المرأة وتدينها . يقول : «البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلى لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذى نجده من ناحيتها فى رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية فى البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن» (٢) .

---

(١) التربية وطرق التدريس ـ صالح عبد العزيز ـ جـ٢ ط الأولى ـ دار المعارف مصر ص ٢٦٩ .
(٢) الشهاب جـ٨ م ١٢ ص٤٤٩ ـ ٤٥٣ نوفمبر ١٩٣٥م .

ولذلك بذلت جهود كبيرة من أجل تربية المرأة الجزائرية وتعليمها حتى تستطيع تربية أبنائها خلقيا، وتعليمهم كي يمكن تدارك مظاهر التدهور الخطير في أخلاق المجتمع الجزائري.

ومن ذلك أنه عندما أسس «جمعية التربية والتعليم» سنة ١٩٣٠م نص قانونها الأساسي على أن البنات يتعلمن فيها مجانا بخلاف البنين فقال: «فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن مجانا لتتكون منهن ـ بإذن الله ـ المرأة المسلمة المتعلمة» (٣).

فهو قد أعفى البنات من دفع رسوم الاشتراك في التعليم شهريا سواء كن قادرات أو عاجزات؛ تشجيعا لهن على التعليم حتى تتكون منهن المرأة المتعلمة التي ستلعب دورها في تربية أطفالها وتعليمهم حتى يمكن القضاء على مظاهر التدهورين الأخلاقي والديني في رجال الجزائر، هذين التدهورين اللذين منشأهما جهل الأمهات، وقلة تدينهن، كما يقول ابن باديس.

ثانيا: المدرسة:

وإلى جانب المنزل أو الأسرة تلعب المدرسة دورها في تشكيل أخلاق الطفل في أول مجتمع يتصل به بعد أسرته، وفي رحابها يجتمع بخليط كبير من الأطفال الآخرين من طبقات مختلفة، ومن بيئات اجتماعية متعددة، منها الصالح ومنها الطالح، لذلك فإن فرص تشكيل الأطفال بالأخلاق الاجتماعية السليمة أمام المدرسة متوافرة جدا، ولذلك تعتبر المدرسة أعظم قوة أخلاقية في المجتمع بعد الأسرة، وهي باعتبارها مؤسسة اجتماعية تنوب عن الوالدين في تربية الأطفال وتعليمهم ـ لها ميزة خاصة على غيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى وهي انفرادها بعملية نقل التراث الفكري الذي تتكون منه ثقافة المجتمع إلى الأجيال الصاعدة من أبنائها لإعدادهم للحياة فيه، والمحافظة على تراثه، ومن هنا يتجلى دور المدرسة في بناء الناحية الأخلاقية في شخصية الأطفال.

والتربية الحديثة تنادي بوجوب جعل مجتمع المدرسة مجتمعا طبيعيا يتأثر بالمجتمع الخارجي ويؤثر فيه، كي تتهيأ الفرص الكافية للأطفال للحياة حياة اجتماعية داخلها

---

(١) الشهاب جـ٢ م٧ ص١١٥ ـ ١١٧ مارس ١٩٣١م.

تشابه الحياة الاجتماعية خارجها إلى حد كبير من أجل إكسابهم السلوك الاجتماعى والمفاهيم والمعايير والأخلاق الاجتماعية، وبذلك تكون المدرسة مركز إشعاع فى المجتمع تؤثر فيه ويؤثر فيها، وتتاح للأطفال فيها فرص التشكيل الأخلاقى المنشود.

ثالثا: المجتمع:

والمجال الثالث والأخير للتربية الأخلاقية هو المجتمع بمؤسساته وأحزابه وتنظيماته الاجتماعية وهيئاته النقابية، والثقافية ونمط الحياة فيه، وطرق التعامل بين أفراده، وعاداته وتقاليده، فإن الأطفال يمتصون فى هذا المجتمع أساليب السلوك الذى يتعاملون به فيما بينهم ومع غيرهم. ومن هنا تلح التربية الحديثة والتربية الإسلامية بصفة خاصة على ضرورة التعاون بين المنزل والمدرسة فى التربية الأخلاقية للناشئين، والعمل بكل وسيلة ممكنة على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة التى لا تهدم مايقوم المنزل والمدرسة ببنائه، لذلك يجب إصلاح المجتمع من مظاهر الاعوجاج والانحراف حتى لا يكون عاملا معوقا للتربية الأخلاقية المنشودة.

ورجال الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث أمثال الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد الحميد بن باديس، يرون أن التربية هى السبيل الوحيد لإصلاح المجتمع الإسلامى من مظاهر الشرك والبدع فى الدين، ومن عوامل الانحطاط الخلقى والتدهور الاجتماعى التى دبت فى كيانه بسبب الجهل، ونخرت قواه فتركته عاجزاً عن النهوض بمستواه ماديا وأدبيا واجتماعيا بين أمم العالم.

يقول الإمام محمد عبده: «إن الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية، وليس هى إلا عبارة عن اتباع الأصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام، والحكم، والتعاليم، وهى عبارة عن السعادة الحقيقية، تعلم الإنسان الصدق والأمانة، ومحبة نفسه، فإذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه».

ثم يعرج على ذكر التدهور الأخلاقى الذى انحدر إليه المجتمع الإسلامى فيقول: «فتأملوا فى فظاعة الأخلاق التى يشب عليها أبناء وبنات العامة من الأمة، ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة إلا بالتربية الكاملة الشاملة للأبناء والبنات» (١).

---

(١) انظر تاريخ الإمام محمد عبده جـ٢ ص ٤٤٩ ـ ٤٧٠.

ويعبر ابن باديس عن الفكرة نفسها تقريبا فى مقال له نشره فى مجلة الشهاب تحت عنوان : «العامة المتعلمة» ، فيقول : «إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التى تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر ، صحيحة العقيدة ، بصيرة بالدين ، فتكمل هى فى نفوسها ولا تهمل - وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته - تعليم أبنائها وهكذا انتشر العلم فى الأمة ويكثر طلابه من أبنائها .

أما إذا خلت المساجد من الدروس كما هو حاليا اليوم - فى الغالب - فإن العامة تعمى عن العلم والدين وتنقطع علاقتها به ، وتقل حرارة شوقها إليه ، فتجسو نفسها وأبناءها وتمسى والدين فيها غريب» (١) .

وإلى مثل هذا الرأى يذهب السيد رشيد رضا فى مجلة المنار فى مختلف أعدادها . «فهؤلاء المصلحون المسلمون يؤكدون على دور التربية فى إحداث عملية التغيير المنشودة فى المجتمع الإسلامى ، والنهوض به فى كافة المجالات ، وخصوصا فى جوانبه الأخلاقية التى انحطت إلى درجة وصفها الإمام محمد عبده «بالورطة الشنيعة» .

ووصفها ابن باديس «بالتيه الذى نحن فيه» (٢) .

والتربية عند جماعة مدرسة «التجديد الإسلامى» ومن أتباعها ابن باديس هى بصفة عامة ، تربية مثالية تهدف إلى تكوين المجتمع الإسلامى الكامل عن طريق بثّ الخلق الكامل فى الفرد المسلم ، وتشتق أغراضها وأهدافها من التربية الإسلامية التى أصلها القرآن الكريم من ناحية ، ومن مشاكل المجتمع الإسلامى المعاصر من ناحية أخرى .

وسائل التربية الأخلاقية فى المدرسة :

للمدرسة فى التربية الأخلاقية وسيلتان :

الأولى مباشرة .   والثانية غير مباشرة .

فالوسيلة المباشرة: هى تخصيص حصص فى الجدول الدراسى للتربية الأخلاقية تدرس فيها المثل العليا كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، والاستقامة الخلقية ، والتعاون ، والشجاعة ، وقول كلمة الحق . . . إلى غير ذلك من الفضائل الفردية الاجتماعية ، وتدرس هذه المثل بواسطة الشعر ، والحكم ، والوصايا ، والدين ، والقصص إلى غير ذلك .

---

(١) الشهاب ب جـ١١ م٦ ص٦٩٢ - ٦٩٣ ديسمبر ١٩٣٠م .
(٢) انظر التفسير ص ٢٣٤ .

وقد انتقد بعض الباحثين هذه الوسيلة فى بث الأخلاق فى نفوس التلاميذ واعتبروها وسيلة غير ناجحة؛ لأنها طريقة نظرية وليست عملية، حيث تعتمد على أسلوب الوعظ والإرشاد فقط دون التدريب والتمرين العملى على السلوك الأخلاقى الحميد للمتعلمين [1].

أما الوسيلة غير المباشرة : فهى التى تعتمد على غرس الأخلاق الفاضلة فى نفوس التلاميذ، وبث العادات الحميدة والسلوك الاجتماعى المستقيم فيهم عن طريق غير مباشر فى أثناء تدريس المواد الدراسية المختلفة، بحيث لا تخصص حصص معينة للتربية الأخلاقية فى المجتمع «وإنما تصبح المواد الدراسية كلها مجالا واسعا للتربية الأخلاقية».

ويرى المربون من أنصار هذه الوسيلة أنها الطريقة المثلى فى تكوين الفضائل فى نفوس التلاميذ، وحملهم على السلوك الأخلاقى القويم وتدريبهم عليه فى مختلف النشاطات المدرسية، ويرون أن شخصية المعلم هى العامل الأساسى فى إنجاح أو فشل التربية الأخلاقية حيث يستطيع بما له من مكانة روحية لدى تلامذته أن يحملهم بطريق غير مباشر على السلوك الأخلاقى الحميد أو العكس.

كما أن النظام المدرسى ككل يلعب هو الآخر دوراً كبيراً فى تدريب التلاميذ على التعاون، والتضامن، والنظام والنظافة والتضحية بالمصالح الخاصة من أجل المصلحة العامة، والصدق والوفاء بالعهد، والأمانة والإخلاص إلى آخره.

كما أن النشاط المدرسى خارج حجرات الدراسة كالألعاب الرياضية والجمعيات الثقافية والفنية والهوايات المختلفة يلعب هو الآخر دوره فى التربية الأخلاقية المنشودة فى التلاميذ.

والشيخ عبد الحميد بن باديس يرى ضرورة الجمع بين الطريقتين: المباشرة وغير المباشرة فى التربية الأخلاقية، ويؤكد على قيام هذه التربية على أساس الأخلاق الإسلامية كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يقول: «كما تحتاج الأبدان إلى غذاء من المطعوم والمشروب كذلك تحتاج العقول إلى غذاء من الأدب الراقى والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة، وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس» [2].

---

(١) التربية وطرق التدريس جـ٢ ص ٢٢٧ ـ ٢٧٨.

(٢) جريدة المنتقد العدد الأول يوليو ١٩٢٥م.

وقد تعرض ابن خلدون فى المقدمة إلى طريقة التربية التى كانت سائدة فى عصره وذكر : «بأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ومايتحلونه من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها» (١) .

فابن خلدون يجمع بين الطريقتين المباشرة وغيرالمباشرة فى التربية الأخلاقية، ولكنه يفضل الطريقة المباشرة على غيرها، على خلاف ما يذهب إليه الكثيرون من المربين المعاصرين، ويؤمن ابن باديس بأن شخصية المعلم تلعب دورا كبيرا فى هذا المجال، فالأطفال والمتعلمون بصفة عامة يقلدون مشايخهم أو أساتذتهم، ويتخذونهم قدوة لهم فى سلوكهم العام حتى ولو لم يشعروا بذلك .

«ولذا كانت التربية الإسلامية تتطلب من المعلم أن يكون المثل الأسمى للأخلاق كى تثمر العظة ويكون قدوة حسنة، فالخلق الكامل هو عماد التربية الإسلامية، والغرض من الحياة هو الأخلاق الكاملة أى الفضيلة» (٢) .

كما تتطلب التربية الإسلامية من المعلم أن يتخذ التعليم والدروس وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وفى تهذيب أخلاقه، وإحياء ضميره، وتقوية إرادته، وتربية حواسه، وتوجيه ميوله الفطرية إلى الطريق المستقيم وتعويده فعل الخير واجتناب الشر .

أثر المعلم :

يقول ابن باديس تحت عنوان «أثر المعلم» : أغلب المعلمين فى المعاهد الإسلامية كالأزهر لا يتصلون بتلاميذهم إلا اتصالا عاما لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة فى العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التى ينفخها المعلم فى تلميذه «إذا كانت للمعلم روح ويكون لها الأثر البارز فى أعماله العلمية فى سائر حياته» ثم يضيف ابن باديس : «فعلى المعلم الذى يريد أن يكون من تلامذته رجالا أن يشعرهم واحدا واحدا بأنه متصل بكل واحد منهم اتصالا خاصا زيادة على الاتصال العام، وأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية مصر ص ٥٤١ .

(٢) التربية الإسلامية ـ محمد عطية الإبراشى ط القومية ص ٩٦ ـ ١٠٠ .

يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس ، بكل واحد منهم عناية خاصة فى سائر نواحى حياته حتى يشعر كل واحد منهم أنه فى طور تربية وتعليم فى كفالة أب روحى يعطف عليه ، ويعنى به مثل أبيه أو أكثر » [١] .

وقد كان ابن باديس يلتزم بما وجه به ، فكان على اتصال وثيق بتلامذته فردا فردا ، وكان بمثابة الأب الروحى لكل واحد منهم واستطاع بشخصيته القوية ، وروحه الآسرة أن يكون للجزائر رجالا عملوا على بعث نهضتها وقادوها فى الطريق الذى اختطه لهم ، وهو طريق العروبة والإسلام والوطنية والجزائرية ، ومن هنا تبدو عبقرية ابن باديس فى تكوين الشباب ، وتربية القادة تربية أخلاقية وقومية وعلمية من الطراز الغالى [٢] .

---

(١) الشهاب جـ٢ نوفمبر ١٩٣٥م ص ٤٥٠ .

(٢) مجلة الدعوة الإسلامية العدد السادس ـ مفهوم التربية عند ابن باديس د. محمد بن عمران ـ مركز بحوث العلوم الإنسانية ـ جامعة الفاتح ص ٢١٧ وما بعدها .

* الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح د. محمود قاسم ـ ط عالم الفكر ص ١٨٧ .

* التغريب الثقافى والتربية الإسلامية فى الجزائر ـ على الشامى ـ ط الفكر العربى العدد ٢١ ـ يوليو ١٩٨١م .

* الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ـ ط الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر ١٩٧٤ ص١٨٣ .

* مجلة الشهاب ١٠ ، ١٢ ، ١٣ أجزاء ١ ، ٩ ، ١١ السنوات ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧م .

الباب السادس

القيم عند ابن باديس

- الحكمة.
- النزعة العقلانية والأخلاقية.
- النزعة الإنسانية والجمالية.
- تكريم العقل.

القيم عند ابن باديس

الحكمة عند ابن باديس

إن معنى الحكمة عند ابن باديس هو «العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم» .

فالحكمة بهذا الاعتبار جمع بين النظر والعمل ، بين الفكر والفعل ، وربط بينهما أو إن شئت قلت إنها تطبيق النظر ، وجعله واقعا حيا متقنا سواء كان ذلك فى ميدان العلم أو فى ميدان الأخلاق أو العقائد أو الآداب ، ولذلك فإن ابن باديس شرح لنا هذا المعنى فى تلك الميادين كلها فقال : «فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة فى النفس رسوخاً ، تظهر آثارها على الأقوال والأعمال حكمة ، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى أثمرتها تلك العقائد حكمة والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة ـ وهى علم وعمل نفسى ـ حكمة ، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع حكمة ، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى أثمرتها والأخلاق والحقائق العلمية» .

والذى يهمنا أن نشير إليه بهذا الصدد إنما هو الآراء الأخلاقية عند ابن باديس ، وينبغى أن نبدأ أولا بتعريفه للخُلُق .

عرف ابن باديس الخُلُق وحدده بأنه «الملكة النفسية التى تصدر عنها الأفعال» ومن جهة أخرى فإنه ذهب إلى أن «الأخلاق فطرية ، وأنها تنمو بالتربية وتنطمس بالإهمال» .

الأخلاق الفاضلة التى هى موجودة فى فطرة الإنسان بأصولها وتنمو بحسن التربية ، وتنطمس بالإهمال .

إن الكمال الإنسانى عند ابن باديس يرجع إلى توافر عناصر ثلاثة :

أ ـ العلم   ب ـ الإرادة   جـ ـ العمل

وقد اعتبرها أصولا للكمال وللسلوك الحميد: «إن الكمال الإنسانى متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة، وقوة العمل».

ويرى ابن باديس أن القيم الخلقية فطرية ولكن أضاف إلى ذلك أن أوامر الشرع آتية على مقتضى العقل: «إن أوامر الشرع ونواهيه هى على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وإنه تعالى لا يأمر بقبيح، ولا ينهى عن حسن».

أما العلاقة بين الأخلاق والعلم وبينها وبين العقائد فقد أوضح لنا أن العلم قبل السلوك، وأن الأخلاق ناشئة عن العقائد «لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها».

وقرر أيضا أن الأعمال مبنية على العقائد وعلى الأخلاق، ولذلك ذكر أن الاهتمام الأكبر ينبغى أن يوجه إلى هذه الناحية «إن الذى نوجه إليه الاهتمام الأعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر».

وقد نقد ابن باديس المدنية الغربية وبين لنا أنها فتنت المسلمين بمظهرها المادى وأدرك منهجها وغايتها، ورد على بعض المفسرين الذين يحاولون أن يفسروا معنى الصالحين بالأوربيين، وذهب إلى أن المسلمين فتنوا بأم الغرب، وفتنوا هم أيضا بنا لجهلنا وفقرنا وضعفنا، فحجبنا حقيقة الإسلام، فكنا بذلك فتنة عظيمة عليهم، ونراهم نحن فى عزة وسيادة وتقدم علمى وحضارى فنندفع فى تقليدهم فى معايبهم ومفاسدهم، ونزدرى كل شىء عندنا حتى أعز عزيز لدينا (١).

النزعة العقلانية والأخلاقية عند ابن باديس

ليس من شك فى أن ابن باديس من أعظم هؤلاء الذين أججوا الوعى الذاتى وأوروا ناره، ونفخوا فيه الحياة، وجددوا ما انطمس من معالمه، وأزالوا عنه ما ران عليه من ظلمات قاتمة، وما أحاط به من خمود قاتل، وما أصابه من وهن مضن أليم، إذ انبعث بما أوتى من روح وثَّابة، وذكاء نافذ إلى التجديدين العقلى والأخلاقى.

نادى ابن باديس بتكريم العقل، وتكريم العقل إنما هو تنزيه «عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وتكريم العقل هو أيضا ربطه بالعلوم والمعارف، وصحيح الاعتقادات».

(١) عمار الطالبى ـ الشعب الجزائرية ١٩٧١م.

وذهب إلى أن التفكير والروية من أفضل الأعمال الإنسانية وإلى أن أفضل الذكر من بين العبادات، وإنما هو «التفكير والتدبر فى أفضل المعانى، وهى معانى القرآن الكريم، وإن التفكير فى عظمة الله وجلاله، وفى الكون، وجميع المخلوقات من أعظم الأذكار وأجلها وأفضلها.

ميز ابن باديس ماسماه بالإسلام الوراثى التقليدى وبين ماسماه بالإسلام الذاتى، وبيّن لنا أن الفرق بينهما هو أن الإسلام الذاتى هو الإسلام الحقيقى «فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله»، ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبركاته، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل ومحبة للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هى بمقتضى الشعور والوجدان.

أما الإسلام الوراثى فهو إسلام من يأخذ عقائده عن طريق التقليد فيدخل فيها ما ليس منها بحكم الوراثة من عقائد باطلة، وعادات فاسدة، وهو ذلك الإسلام الذى يتصوره معتقده على أساس من تصور آبائه دون نظر ولا تفكير ومحبة هذا المعتقد للإسلام على هذا النحو، إنما هى محبة عاطفية بحكم الوجدان فحسب، وهو إسلام معظم عوام المسلمين الذين أدخلوا فيه من البدع الاعتقادية والعملية ما يأباه الإسلام فى أصوله ومنابعه، والإسلام الوراثى أيضا هو ما بُنى على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر.

إن الإسلام الذاتى هو الإسلام الذى جاء به القرآن الكريم وأمرنا أن نقيمه على الفكر ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ . [سورة سبأ الآية ٤٦].

إن الأمم فى نظر ابن باديس لا تنهض إلا بالتفكير فى الطبيعة وفى آيات الله، ولا تتقدم إلا ببناء أعمالها وأحكامها وأقوالها على الفكر، وذلك وحده هو سبيل الحضارة والعمران واستغلال الكون.

ودعا إلى أن يكون إسلامنا ذاتيا أى إسلاما حقيقيا أصله القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يكون إلا عن طريق التعليم، يعلم الإسلام للبنين والبنات وللرجال والنساء.

وقرر أنه : لا حياة إلا بالعلم ، وذهب إلى أن القرآن الكريم نفسه معجزة علمية عقلية ، أى أن الإنسان العاقل إذا فكر فيه خضع لسلطانه لأنه برهان لا يقوى على معارضته ، ولأن القرآن الكريم آية كبرى على مر العصور لانبنائه على الاحتجاج بالعقل والعلم .

وأوضح لنا أن الدين الإسلامى دين عقلى إنسانى فقال : لقد أعطانا الله سبحانه من هذا الدين الإنسانى من هذا الدين العقلى الروحى ما يكمل عقولنا ويهدى أرواحنا .

دعا ابن باديس إلى استقلال الفكر سواء فى ميدان الحياة أو فى ميدان التربية باعتبار أن التفكير لازم للإنسان فى جميع أموره صغيرها وكبيرها ، فقال : إذا كان التفكير لازما للإنسان فى جميع شئونه وكل ما يتصل به إدراكه فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان ، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل ، وفيما ينظر من الأدلة تفكيرا صحيحا مستقلا عن تفكير غيره ، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به ، ثم لابد له من استعماله فكره هو بنفسه .

بهذا التفكير الاستقلالى يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى - حقيقة - علما وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره ، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه .

وقد أكد الاستقلال الفكرى أكثر ما أكده ، وألح عليه أكثر ما ألح فى الميدانين العلمى والتربوى ، لذلك دعا الطلاب إلى الاستقلال العقلى فى البحث والنظر فقال : «فالتفكير التفكير يا طلبة العلم! فإن القراءة بلا تفكير لاتوصل إلى شىء من العلم ، وإنما تربط صاحبها فى صخرة الجمود والتقليد ، وخير منهما الجهل البسيط» .

وذهب ابن باديس إلى أن العقل قد تصيبه أمراض ، وشرح لنا أن هذه الأمراض متعددة منها «جمود النظر ، وفساد الإدراك ، وتقليد الآباء ، واعتقاد الباطل ، والشك فى الحق ، كما أن النفوس قد تعتريها أمراض بفساد الأخلاق واتباع الهوى وإذا مرضت العقول ، وأصيبت النفوس بالانحراف فسدت الأعمال لأنها تابعة لهما تصلح بصلاحهما ، وتفسد بفسادهما» (١) .

---

(١) مقال لعمار الطالبى بتصرف الشعب الجزائرية ١٩٧١م .

إذا كان ابن باديس ينزع نزعة إنسانية فإنه لم يمنعه ذلك من أن يعتبر خدمة وطنه وخدمة أمته سبيلا طبيعية لخدمة الإنسانية ما لم نخدم أوطاننا وشعوبنا . قال ابن باديس :

«إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحدب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده، ونرمى إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من آلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجدت التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع» .

وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الإنسانية من التصور القرآنى للحقيقة الإنسانية، تلك الحقيقة التى احترمت الكائن البشرى وأولته الدرجة الأولى من الكرامة، وأوضحت للناس أجمع أن بنى الإنسان من طينة واحدة، وأن هذه الطينة أو تلك الطبيعة تتساوى فيها جميع الأجناس . إن القرآن الكريم قد صرح بالكرامة الإنسانية تصريحا لا تشوبه شائبة من شك أو تحوم حوله حائمة من ظن، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [سورة الإسراء الآية ٧٠] .

كما عبر لنا القرآن عن أصل الطبيعة الإنسانية الواحد، وعن أرومتها المتحدة التى استند إليها فى دعوته إلى التعاطف والتراحم والمحبة، والأخوة، فخاطب بنى آدم كافة بهذا النداء العميق الذى يتوجه إلى فطرة كل كائن من الكائنات الناطقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء الآية الأولى] .

بل إن القرآن الكريم اعتبر الاعتداء على الموجود البشرى اعتداء على البشرية قاطبة، كما أن إحياء فرد واحد إحياء للحقيقة الإنسانية كلها :

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة الآية ٣٢] .

واحترم الإسلام أديان الآخرين وأفكارهم وعقائدهم قال تعالى :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون الآية ٦] .

ودعا إلى التعايش السلمى بين مناهج الناس فى الحياة وتصوراتهم لها ، وهون عليهم أمر الاختلاف فيها . يقول جل فى علاه :

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة الآية ٤٨] .

وشرع القرآن الكريم للإنسان مبدأ العدل العام حتى مع العدو :

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة الآية ٨] .

وقرر الإسلام مبدأ أخلاقيا اجتماعيا حضاريا فى مخاطبة الإنسان لأخيه الإنسان فأمر بأن يكون خطابا لطيفا لينا جميلا .

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة الآية ٨٣] .

وهكذا فهم ابن باديس أصول المذهب الإنسانى الإسلامى وحللها فيما كتب وفيما شافه به أمته ، وانتهى فى تصوره للحقيقة الإسلامية إلى القول بأنها حقيقة دينية إنسانية فقال : «علمنا أنه دين الإنسانية . . . فإذا عشت له فإنى أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها ، وفى جميع مظاهر عاطفتها وأفكارها» .

وآمن ابن باديس بوطن الإنسانية العام ، كما آمن بأوطان أخرى خاصة تبدأ من الجزائر ثم المغرب ثم الوطن العربى ، فالوطن الإسلامى ، وتنتهى بوطن الإنسان من حيث هو إنسان .

أحب ابن باديس الإنسانية وبغض من يبغضها أو يظلمها أو سولت له نفسه أن ينال

من كرامهتا، وعبر لنا عن هذه النزعة الإنسانية القائمة على الحب فى صورة واضحة جميلة واقعية فيها تأكيد لهذا المعنى وإلحاح فى الإبانة عنه فقال :

«إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، أو نحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها».

فليس هناك فى نظره أى تناقض بين حب الوطن وحب الإنسانية، بل إنه رد على أولئك الذين ينكرون الأوطان الخاصة لأنها بزعمهم ضد إنسانيتهم، فالإنسان فيما يرى ابن باديس إذا أحب وطنه، وغذى عقله بالمعرفة السليمة فإنه يشعر بالحب العميق لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطنا له، وهذا وطنه الأكبر، هذا ترتيب طبيعى لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الأصغر.

وأنكر ابن باديس على أولئك الذين يسمهم بالأنانية لأنهم لا يعترفون إلا بالوطن الضيق، كما أنكر على الذين يضرون بالأوطان الأخرى فى سبيل وطنهم الكبير، وهؤلاء عنده شر وبلاء على البشرية جمعاء، ونعى أيضاً على الذين لا يعترفون إلا بالوطن الأكبر، وضربوا صفحا عن الوطنيات والأديان، وكأنه يقصد بذلك الشيوعيين الذين وصفهم بأنهم عاكسوا الطبيعة.

أما الوطنية الإسلامية فى نظره فهى الوطنية التى تعترف بالوطنيات كلها وتنزلها منزلتها غير عادية ولا معدو عليها، وترتبها ترتيبها الطبيعى حيث تنبنى كل واحدة منها على ما قبلها، وتعتبر دعامة لما بعدها، والإنسان هو الذى يجد صورته وسعادته فى وطنه الصغير، كما يجدها فى الإنسانية كلها، فالوطنية الإسلامية تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها، وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية فى جميع أجناسها وأديانها.

وأوضح لنا ابن باديس أنه يهدف إلى التقريب بين جميع العناصر الإنسانية ويجاهد من أجل ذلك ويحترمها رغم اختلاف الأديان والأجناس، وربط ذلك كله بصفته إنسانا مسلما : «أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية وأحترمها فى جميع أجناسها وأديانها، وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها وأجاهد فيما هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك وهو العدل والتناصف والاحترام».

وبما أن ابن باديس يعتبر من المربين الممتازين، فإنه بنى عمله التربوى على المحبة وعلى زرعها فى القلوب التى أراد أن يثبت فى أعماقها حب الإنسانية بجميع أجناسها وأديانها، وأن يعلمها الأخوة الإنسانية ووصف نفسه بأنه زارع محبة فقال: «أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أى جنس كان ومن أى دين كان، من كل جنس من كل دين، فاعملوا للأخوة ولكن مع من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة».

ويشعر القارئ بإلحاح ابن باديس على التحفظ فى هذه النزعة وعلى تقييدها بقيود العدل والإنصاف والاحترام المتبادل، والواقع أن هذا يعود إلى ظروفه الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن المستعمرين لا يحترمون إنسانية الإنسان الجزائرى.

وقد أبان ابن باديس عن ذلك فى قصيدته المشهورة:

من كان يبغى ودنا ... فعلى الكرامة والرحب

أو كان يبغى ذلنا ... فله المهانة والحرب

هذا نظام حياتنا ... بالنور خُطّ وباللهب

وأنشأ قصيدة أخرى عنوانها: «القومية الإنسانية» جاء فيها قوله:

قومى هم وبنو الإنسان كلهم ... عشيرتى وهدى الإسلام مطلبى

رأى ابن باديس فى الفن والجمال:

لم يكن ابن باديس من أولئك الفقهاء الذين لا يفكرون إلا فى القيم الأخلاقية والمنطقية، بل إنه اهتم بالقيم الجمالية أيضا، فكتب مقالا عنوانه: «الفن الأدبى فى الحديث النبوى» فتحدث عن جمال الصوت وعن الصورة الرائعة التى صور بها النبى - صلى الله عليه وسلم - النساء فى قوله مما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى قلابة عن ثابت البنانى عن قتادة عن أنس أنه كان للنبى حاد يقال له: أنجشة وكان حسن الصوت، وكان النبى فى مسير له: فحدا الحادى وكان يحدو بهن، فقال له النبى: «ويحك أنجشة رويدا بالقوارير» وذلك أنه لما غنى أنجشة للإبل وكان على ظهورها النساء أخذت فى السير ونشطت واندفعت، فأتعبهن ذلك السير وأشفق النبى عليهن؛ فأمر الغلام الفارسى الحادى وهو أنجشة أن يرفق بهن لشدة ما يجدن من الاضطراب على ظهور الإبل، وهى تسرع فى سيرها، فعبر عن ذلك بصورة جذابة فشبه النساء بالقوارير أو

الزجاجات لما فيها من بياض ولمعان ورقة، ولما فى النساء أيضا من رقة العواطف ولطفها وسرعة انكسار قلوبهن وتأثيرها وعسر انجبارها.

وقد حاول ابن باديس أن يعرف لنا مفهوم الفن فبين لنا أنه: «إدراك صفات الشيء على ما هى عليه من حسن وقبح إدراكا صحيحا، والشعور بها كذلك شعوراً صادقاً، والتصوير لها تصويراً مطابقا بالتعبير عنها بعبارات بليغة فى الإبانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الأدبى».

فالفن الأدبى عند ابن باديس يتكون من عناصر إدراكية شعورية وتعبيرية ومن مطابقة، والفنان هو ذلك الإنسان الذى يدرك صفات الشيء الحسنة والقبيحة إدراكًا صحيحاً، وهو الذى يشعر بتلك الصفات وينفعل بها بصدق، ثم يعبر عن إدراكه وتجربته الشعورية تعبيرا مبينا بليغا، على أن يكون ذلك مطابقا للحال. ويلاحظ القارئ أن ابن باديس جرى على رأى رجال البلاغة فى أصل من أصول البلاغة والنقد، ألا وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كما أنه اشترط فى التصوير أن يكون مطابقا، فكأن المطابقة هنا تشبه لحد ما مايسميه أرسطو بالمحاكاة، والواقع أن الفنان يبدع الصور، ويضفى على الأشياء أخيلة وظلالا ذاتية ما كان لها أن تعتبر مطابقة للواقع الخارجى أو محاكية له، ويمكن القول بأن ابن باديس ذهب فى الفن مذهبا منطقيا يتصل بالحق أكثر من اتصاله بالإبداع الفنى؛ لأنه اعتبر الفن إدراكًا لصفات الشيء على ما هى عليه فى الواقع فى العالم الخارجى على نحو ما يتصور الفلاسفة الحقيقة التى يرون أنها مطابقة فى عالم الأذهان لما فى عالم الأعيان.

ولم يكن بهذا الاعتبار مثل شيء جديد أبدعه الفنان سوى التعبير الذى يمتاز بالإبانة والبلاغة، ولكننا نجد ابن باديس يضيف إلى عناصر الصورة الأدبية الفنية عنصرًا آخر يتوجها وهو اللذة التى تحصل للمتذوق؛ لأن هذه اللذة فى نظر ابن باديس تدفع عن الإنسان ما يجده من متاعب الحياة وأوصابها وآلامها لأن الآثار الفنية تدخل على النفوس انشراحا وبهجة وصفاء.

وأدرك ابن باديس أيضا ما يسمى فى الفن بالتواصل أو المشاركة الوجدانية، فقال: «لذا كان أكثر الفن الأدبى فى تصوير الحسن وعرضه على الناس؛ ليشاركوا الفنان فى إدراك ذلك الحسن، والشعورية والتذوق للذة ذلك الإدراك والشعور».

وبين لنا باعتباره مربيا ومعلما دور تربية الذوق الجمالى، وغرسه فى النفوس لتتمكن من الشعور بما فى هذا الكون من آيات الجمال، وذكر أن القرآن الكريم مفعم بصور ومشاهد تعرض علينا آفاق الكون فى صورها الجذابة الجميلة، وأشار أيضا إلى

أن الحديث النبوى يشتمل على روائع من الفن الأدبى، وخوالد من الآثار الرفيعة، كما أنه استشهد بقصيدة كعب بن زهير الذائعة التى ألقاها أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - فوصف المرأة والماء الذى مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويرا فنيا، ولم ينكر عليه لأنه لم يكن يصف شخصا معينا يؤدى وصفه إلى إثارة الشهوة البهيمية نحوه، وإنما للنفوس البشرية صورها الجمالية، وتنمى فيها قوة الشعور والذوق.

ولم يخف ابن باديس أن ينبهنا إلى ما فى الحديث من فقه نفسى، فحلل الحديث تحليلا فقهيا نفسيا، وأوضح أن فيه تنبيها على نبذ التشدد والتنطع فيما لا عيب فيه، ولا قبح فى معناه، ولا فحش فى لفظه من جهة وفيه أيضا «التنبيه على المحافظة على قلوبهن (النساء) وعواطفهن ليدوم ودهن وسلامتهن، ويدوم الهناء معهن والاستمتاع بهن لأنهن ضعيفات القلوب، رقيقات العواطف، شديدات الإحساس، يصبرن على كل شيء من الرجل إلا على كسر قلوبهن ومس عواطفهن».

ومن جهة أخرى نجد ابن باديس يتصور الإسلام على أنه حقيقة قائمة على عناصر ثلاثة: أ - الحياة ب - العلم جـ - الفن

فقال: «الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال». بيد أن ابن باديس ربط بين القيمة الجمالية والقيمة الخلقية فذهب إلى أن الدعوة إلى الجمال والتحبيب فيه فى جميع مظاهر الحياة أن يكون فى إطار العفاف والفضيلة، وساق عدة آيات قرآنية فى هذا المعنى منها قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين الآية ٤].

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة غافر الآية ٦٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [سورة يونس الآية ٢٤].

وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [سورة النمل الآية ٦٠].

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف الآية ٣٢].

وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النور الآية ٣٠].

ويرى ابن باديس أن القرآن الكريم نفسه استخدم الصور الجمالية فى الدعوة إلى الهداية وإلى التأمل فى الطبيعة : «يعرض علينا القرآن صورا من العالمين العلوى والسفلى فى بيان بديع جذاب يشوّقنا إلى التأمل فيها والتعمق فى أسرارها» .

إن الجمال فى نظر ابن باديس يصبح فتنة إن لم يُحَطْ بسياج من الأخلاق ، وإذا كان العالم ينطوى على جمال فإنه قد يصير شرا وبلاء على من اتبع هواه واستعبد عقله : «هذا العالم بمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال» .

إن ابن باديس زارع محبة ، وداع إلى المعانى الحقيقية للمذهب الإنسانى وإلى رحابة الأفق ، وعلم الناس أن الجمال مقوم من مقومات الحضارة ، وأن التربية الجمالية وتنمية الذوق من أسس التربية الخلاقة للشخصية الحرة الشاعرة بذاتيتها وحريتها وقوتها المتذوقة لما فى العالم من جمال ، المتعاطفة مع ما فى الإنسان من محبة ، وما فى جوهره من كرامة متأصلة [1] .

وبعد ،

فلعل ما سبق يرسم الخطوط الرئيسة للنزعة الإنسانية والجمالية فى فكر عبد الحميد ابن باديس .

تكريم العقل

يقول ابن باديس :

«لكل إنسان فطرته وعقله فعلينا إذا دعينا إلى شىء أن نعرضه عليهما ، راجعين إلى الفطرة الإنسانية ، وإلى العقل البشرى ، منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات ، وتجد القرآن الكريم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما» .

لقد نادى ابن باديس بتكريم العقل ، وتكريم العقل إنما هو تنزيهه ـ كما يقول أيضا ـ عن الأوهام والشكوك والخرافات وربطه بالعلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات .

وذهب إلى أن التفكير والروية من أفضل الأعمال الإنسانية ، وميّز بين ما سماه

---

(١) انظر مجلة الأصالة العدد السابع السنة الثانية صفر ١٣٩٢هـ ط الجزائر . وأيضا دراسات ثقافية وأدبية د/ عمار الطالبى ص ٤٩ ـ ٥٣ بتصرف .

بالإسلام الوراثى والتقليدى، وبين ما سماه بالإسلام الذاتى، وبيّن لنا أن الفرق بينهما هو أن الإسلام الذاتى هو الإسلام الحقيقى:

إفهام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله، ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبركاته، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان، وعمل ومحبة للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان كما هى بمقتضى الشعور والوجدان.

أما الإسلام الوراثى فهو إسلام من يأخذ عقائده عن طريق التقليد فيدخل فيها ما ليس منها بحكم الوراثة من عقائد باطلة، وعادات فاسدة، وهو ذلك الإسلام الذى يتصوره معتقده على أساس من تصور آبائه دون نظر ولا تفكير ومحبة، وهو إسلام معظم عوام المسلمين الذين أدخلوا فيه من البدع الاعتقادية والعملية ما يأباه الإسلام فى «أصوله ومنابعه» وهو ما بنى على الجمود والتقليد، فلا فكر ولا نظر ـ كما يقول ابن باديس.

ودعا الشيخ إلى استقلال الفكر سواء فى ميدان الحياة أو فى ميدان التربية، وبين لنا أن المناظرة فى العلم وفى الدين أصل من أصول الشرع، وعلى هذه المبادئ شجب الشيخ طرق علماء الكلام وتخيلات المتصوفة والفلاسفة الذين تمسكوا بالفروع الشرعية وبعدوا عن الأصول التى أقامها القرآن الكريم وأوضحتها السنة النبوية المطهرة، واتبعوا الفروع المجردة عن أصولها وحكمتها . . . هكذا أثار الشيخ فى إحدى مقالاته.

وكان لابن باديس نظرات أخلاقية صادقة أجاد استنباطها من القرآن الكريم فى يسر ودون اصطلاحات فلسفية معقدة. فهو يربط صلاح الفرد بصلاح المجتمع، ويرى أن الإسلام دين تفاؤل ومستقبل، فلا يأس ولا قنوط. ويعلى من شأن العلم؛ لأن العلم الصحيح والخلق المتين أصلان ينبنى عليهما كمال الإنسان، ولما كان الدين يدعو إلى العقل فمن واجب العقل أن ينسق معلوماته، ويصحح إدراكه لحقائقها ونسبها حتى تكثر اكتشافاته فى عالمى المحسوس والمعقول.

«من ذلك يتضح أن الإمام ابن باديس من أنصار الفكرة العلمية الحديثة التى تقول بأن نظام الكون مطرد وعام، والتى يطلق عليها المناطقة المحدثون اسم مبدأ «الحتمية فى الطبيعة» وهو أساس التقدم العلمى فى العصر الراهن، وليس فى الاعتماد على الله ما يتعارض مع حثه على البحث والعمل، ولا فى الإيمان به ما يتعارض وفكرة السببية».

وهكذا يكرم ابن باديس العقل، ويدعو إلى احترامه، فهو منحة من عند الخالق الأعظم.

الباب السابع

جوانب مختصرة من أعمال ابن باديس

- أقوال.
- مقالات.
- فتاوى.
- تعريف بالرجال.
- نماذج من التفسير في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

جوانب مختصرة من أعمال ابن باديس

لا غرو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يتبع الحوادث السياسية المصيرية بدقة لا تخلو من العطف الرحب والانتقاد البناء، ويستخرج منها العبر اللازمة، ويرى النقائص، ويفكر فى العلاج كرجل مثقف يهمه الأمر من قريب ومن بعيد بصفته عربيا مسلما وإنسانا مستعمَراً يتضامن مع جميع المنكوبين والضحايا فى العالم. وهو يعتنى زيادة على ذلك بوضع المجتمع وبتقييم إمكاناته، وخلق أسس معقولة واقعية موضوعية لدعم المبادئ الخاصة بكيان الشعوب المغلوبة على أمرها، وكفاحه فى حدود تاريخه ولغته وانتمائه إلى الأمة العربية المضطهدة يومذاك، وبفضل هذا السلوك الفكرى برهن الشيخ بن باديس على ميزة كان ينفرد بها بالنسبة لغيره من أكابر المصلحين فى العالم الإسلامى (أو الكثير منهم) وهى ميزة الوعى السياسى الحاد الشامل فى صلته الوثيقة بالثقافة والمجتمع، لا يفصل طرفا عن طرف آخر فى نهج المفاهيم وإحكام تكاملها ولا يبتر من أبعاد تسلسلها المتناهية، وكان هذا الوعى السياسى الشامل المتيقظ آلة متقنة للفحص والمعرفة والكفاح معا، وليست الثقافة من بين كل الأجزاء المترابطة المتماسكة قيمة مستقلة بذاتها تدعو إلى المتعة وتشيد بالتسلى فحسب، وليست اللغة هناك أداة مستقلة يسعها أن تتجنب ما يمس ذويها من تخلف وركود فتصبح منيعة معصومة بعيدة عما يعترى الناطقين بها من سوء المصير، وإن فى تفكير ابن باديس ولهجته لرنة عصرية تردد، وهى الأخرى صدى يأتى من الماضى يوم كان ينشئ العرب ثقافتهم وعلومهم بالجهد الشاق والعمل المستمر الخلاق، والنقد والتحليل.

وأصدق دليل على توجه ابن باديس الفكرى وفهمه لربط النتائج بأسبابها والفروع بأصولها ما نقرؤه فى مجلة «الشهاب» عدد نوفمبر عام ١٩٣٣م تحت عنوان «سقوط اللغة بسقوط أهلها».

والشهاب كانت مرآة لما يخالج وجدان ابن باديس ويحفل بأفكاره، وكانت فيما يخص الجزائر والمغرب والعالم العربى على العموم سجلاً شهريا لمناجاة رائعة يتابعها الشيخ مع نفسه وهو ينادى فى حقيقة الأمر شعبه وأمته العربية.

تلك نبذة ولمحة تعطياننا فكرة عن جانب مهم من سلوك الشيخ ابن باديس العقائدى فى حقبة معينة من الزمن، تتصف بعقم محتوم مرعب على صعيد الخلق السياسى المجدد، كان هو فيها بلا منازع أكبر مؤيدى القومية العربية وأذكى العاملين من أجلها بروح حرة جسور تتماشى ومقتضيات الكفاح يومذاك، وتسعى فى إخراج هذه العقيدة المشتركة مبدئيا بين العرب والمنحصرة لديهم، إلى أبعاد أخرى تقترن بنضال الشعوب المنكوبة، والتضامن مع جميع القوى الجماهيرية المعادية للاستعمار فى العالم.

ويكفينا دليلاً ما كتبه عن هذه العقيدة فى سبيل القومية العربية التى كانت ربما تفوق حدة ورواجا فكرته فى الوطنية، رغم مواقفه المشرفة العديدة فى ميدان الجهاد السياسى الجزائرى الحديث، ويكفينا دليلاً خطابه «العرب فى القرآن» الذى ألقاه عام ١٩٣٩م، وهو نص يعتبر نواة لمنهجه العقائدى فى القومية (١).

والنماذج التالية من أعمال ابن باديس من أقوال ومقالات وفتاوى وتعريف بالرجال ثم تفسير مميز لآيات من الذكر الحكيم، كل هذا بألمعية العالم المتمكن من علمه والمجاهد الذى يرى فى جهاده أسلوب حياة، والمصلح والداعية الذى وهبه الله تعالى حب مريديه عندما وضع نصب عينيه قول الحق تبارك فى علاه:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل الآية ١٢٥].

من أقوال ابن باديس

* أتمنى لإخواننا المسلمين فى كل ناحية أن يشتغلوا بما يهم وينفع، ويعلى ويرفع، ويعرضوا عن سفاسف الأمور وبسائط المسائل، فدينهم دين العصم والمدنية، لا دين الجمود والهمجية، وعصرهم عصر جد وفصل، لا عصر لعب وهزل، والمتخلف عن القافلة هو بلا شك عرضة للإتعاب وطعمة للذئاب (٢).

* * *

(١) انظر: معاصرنا الجليل الشيخ عبد الحميد بن باديس بين الوطنية الجزائرية والقومية العربية ـ مصطفى الأشرف ـ فى ذكرى وفاة ابن باديس الواحدة والثلاثين ـ ملحق جريدة الشعب الجزائرية.
(٢) البصائر عدد فبراير ١٩٣٧م.

* أيها المسلم الجزائرى هاك وصايا نافعة مختصرة على وجه الإجمال وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل.

هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك ويفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك فى هاته الحياة.

هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يُرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم.

حافظ على صحتك، فهى أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك.

قه أهلك وولدك ومن إلى رعايتك مما تقى منه نفسك، وسيِّرهم على نظام صحى وقانوَن أدبى تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك.

حافظ على عقلك فهو النور الإلهى الذى منحته لتهتدى به إلى طريق السعادة فى حياتك.

حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيرى لبذله.

كن عصريا فى فكرك، وفى عملك وفى تجارتك وفى صناعتك، وفى فلاحتك، وفى تمدنك ورقيك، كن صادقا فى معاملاتك بقولك وفعلك.

احذر من الخيانة: الخيانة المادية فى النفوس والأعراض والأموال والخيانة الأدبية ببيع الخدمة والشرف والضمير.

احذر من التعصب الجنسى الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر، وخصوصا ابن جلدتك المتجنس بجنسية أخرى، فهو أخوك فى الدم الأصلى على كل حال كن محسناً لكل أحد من كل جنس ودين فدينك الشريف يأمرك بالإحسان.

ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون لابد أن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقى برغم كل الغيوم التى ينشرها حولك خصومك ومنافسوك (١).

* * *

(١) الشهاب عدد ٤٩ السنة الثالثة ١٥ صفر ١٣٤٥هـ ـ ٢٣ أغسطس ١٩٢٦م .

من مقالات ابن باديس

الإسلام الذاتى والإسلام الوراثى ... أيهما ينهض بالأمم ؟

يولد المرء عن أبوين مسلمين فيعد مسلما، فيشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين، تجرى على لسانه وقلبه كلمة الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، فراق روحه أهون عليه من فراق الإسلام، لو نسبته لغير الإسلام لرأيت منه . . . لثار عليك أو بطش بك، ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام، ولا عرف شيئا من أصوله فى العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يطلق شيئا من معانى القرآن العظيم ولا أحاديث النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهذا مسلم إسلاما وراثيا لأنه أخذ الإسلام كما وجده من أهله، ولابد أن يكون بحكم الوراثة قد أخذه بكل ما فيه مما أدخل عليه، وليس منه من عقائد باطلة وأعمال ضارة وعادات قبيحة فذلك كله عنده هو الإسلام، ومن لم يوافقه على ذلك كله فليس عنده من المسلمين.

هذا الإسلام الوراثى هو الإسلام التقليدى الذى يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبة أهله للإسلام، إنما هى محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الوراثى هو إسلام معظم عوام الأمم الإسلامية، ولهذا تراها مع ما أدخلت على الإسلام من بدع اعتقادية وعملية، ومع ما أهملت من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه متمسكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلا ولو لحقها لأجل تمسكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان.

هذا الإسلام الوراثى حفظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به - وخصوصا العربية منها - شخصيتها ولغتها، وشيئا كثيرا من الأخلاق ترجح به الأمم الإسلامية إذا وزنت بغيرها، ومن ذلك خلق العفة والطهر الذى حفظ نسلها فتراه يتزايد بينما تشكو أمم أخرى غير إسلامية من نقصان نسلها.

إن هذا الإسلام الوراثى لا يمكن أن ينهض بالأمم؛ لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها، والإسلام الوراثى مبنىّ على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر.

أما الإسلام الذاتى، فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقه - حسب طاقته - فى الآيات القرآنية

والأحاديث النبوية ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وماليس منه بقبحه وبطلانه فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هى بمقتضى الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الذاتى هو الذى أمرنا الله به فى مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سورة سبأ الآية ٤٦].

فبالتفكير فى آيات الله السمعية وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم فتستثمر ما فى السموات وما فى الأرض، وتشيد صروح المدنية والعمران. إذًا: فنحن المسلمين مطالبون بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا . . فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض؟

لذلك سبيل واحد، هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلماً حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون - أفرادا وجماعات - مسئولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات للرجال والنساء كل بما استطاع، والقليل من ذلك خيره كثير، يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر الآية ١٧].

* * *

الوحدة العربية: هل بين العرب وحدة سياسية:

إذا قلنا العرب فإننا نعنى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا، والتى فاقت المائة مليون عدًا تنطق بالعربية وتفكر بها، وتتغنى من تاريخها، وتحمل مقداراً عظيما من دمها، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة.

هذه الأمة العربية تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة، ولكن هل بينها وحدة سياسية؟ هذا هو الموضوع الذى طرقه الأمير شكيب أرسلان، وقال فيه كلمة السياسى العملى والخبير المحنك، فتعرض له سليمان باشا البارونى بمقال نقضناه وفضحنا ما فيه من خطأ وتحامل.

الوحدة السياسية لا تكون إلا بين الشعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها فى علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها فى تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة.

فهى مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة فى وضعها، وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها، وهى لم تستطع أن تعتمد على نفسها فى داخليتها فكيف يعتمد عليها فى خارجيتها؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمرغير ممكن ولا معقول ولا مقبول.

وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فإنا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالا حقيقيا فهذه تمكن بينها الوحدة ا لسياسية وتجب، وقد وقعت ـ والحمد لله ـ بين بعض الدول.

ثم نجد شعوبا أخرى وهى شعوب الشمال الإفريقى المصابة بالاستعمار فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها فى دائرة وضعيتها الخاصة على مايناسبها من الخطط السياسية التى تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها، ونحن نعلم أن الواقع اليوم فى شمالنا الإفريقى العربى هو هذا بعينه، فنقول ـ بكل صدق وصراحة ـ إن كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه فى سياسته، لا نعرف هيئة منها تتصل بهيئة مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة.

والأمير شكيب الذى تعده الدول المستعمرة ألد أعدائها وتنسب إليه ـ ظلما وزوراً ـ كل حركة تقع فى الأمم المصابة باستعمارها يصرح فى خطابه بعدم الوحدة السياسية بين شعوب العرب المغلوبة على أمرها وشعوبهم المستقلة، لأنه ـ وهو أكبر مدافع عن العرب والإسلام فى الغرب والشرق ـ رجل عملى ليس بخيالى، وسياسى مجرب خبير يعرف ما يقول ويفرق بين العمل المثمر والقول الفارغ الذى يثير الضجيج لينسب صاحبه إلى الغيرة والحماس، وإن كان يثير الغبار ويكدر الجو فى نواح أخرى.

هذا رأينا فى الوحدة السياسية بين شعوب العرب، ونحن نعتقد أنه هو رأى جميع إخواننا العاملين فى هذا الشمال [1].

* * *

فلسطين الشهيدة:

رحاب القدس مثل رحاب مكة والمدينة، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى المسجد الأقصى فى سورة الإسراء: ﴿الذى باركنا حوله﴾ ليعرفنا بفضل تلك الرحاب. فكل ما هو واقع بها كأنه واقع برحاب المسجد الحرام، ومسجد طيبة، حمى الإسلام تلك الرحاب من أيامه الأولى، وحمى جميع مقدسات جميع الملل، وكف عادية بعضهم عن بعض، وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش وحرية المعتقد واحترام المعاهد.

تزاوج الاستعمار الإنجليزى الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير الطمع الأعمى الذى أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل.

نقول لقسم كبير من اليهود لأن هنالك من اليهود عدداً كثيراً يستنكر هذا المأتى الجنونى الظلوم، ويعترف بجميل الإسلام والسعادة التى نعم بها اليهود، ويهود القدس فى ظله الوارف الأمين، فقد قدم رئيس الطائفة السامرية إلى حاكم نابلس عريضة احتج فيها باسم الطائفة على الاعتداءات الأثيمة التى وقعت على العرب فى القدس وحيفا ويافا هذا نصها:

«نحن أفراد الطائفة السامرية رجالا ونساء نستنكر بشدة أعمال الاعتداءات الفظيعة التى يقوم بها أشخاص من اليهود ضد قوم أبرياء فى حيفا ويافا والقدس، ونطلب بشدة الحيلولة دون تكرار هذه الحوادث المروعة، ونصرح بأننا ـ على أقليتنا ـ نعيش منذ ألوف السنين مع مواطنينا العرب فى سلام».

هذه هى الحالة العامة التى كانت عليها فلسطين ألوف السنين، حتى جاء الزوجان المشئومان الصهيونية والاستعمارية، فكان البلاء على فلسطين كلها، عربها ويهودها. فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها، ولا بين كل مسلم ويهودى على وجه

---

(١) الشهاب: جـ١١ ص ٤٧٢ غرة ذى القعدة ١٣٥٦هـ.

الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الإنجليزى من جهة والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين والشهداء حماة القدس الشريف والميدان رحاب المسجد الأقصى، وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند الله تعالى على كل ما يجرى هناك من أرواح تزهق وصغار تيتم ونساء ترمل وأموال تهلك وديار تخرب وحرمات تنتهك، كما لو كان ذلك كله واقعا بمكة أو بالمدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع.

يريد الاستعمار الإنجليزى الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربى وحط قدس الإسلام، فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم، ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند جنود الإنجليز وتجمع أموال الصهيونية وتسفك الدماء البرئية وتلطخ بها الرحاب المقدسة.

يجرى كل هذا وترتفع له أصوات العالم الإسلامى والعالم العربى بالاحتجاج والاستنكار ويخاطب ملوك العرب والإسلام حكومة الإنجليز فلا تزيد آذانها إلا صمما ولا قلبها إلا تحجراً.

نقول العالم الإسلامى والعالم العربى لأننا لم نر ولم نسمع من غيرهما احتجاجًا جديا واستنكاراً صارخًا، حتى الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها بصراخهم ويبذلون ما يبذلون من مساعداتهم فى أوطان أخرى لم نرهم إزاء فلسطين الشهيدة إلا سكوتا أو شبه سكوت، وشتان ما بين من يريد المقاومة ومن يريد رفع الملام.

نحن ـ المسلمين، أعداء الظلم لطبيعتنا الإسلامية، ونرحم المظلوم ولو كان هو ظالما لنا. منذ أيام كنت فى حانوت تاجر مسلم، وقد قرأ علىّ أخباراً عن اضطهادات ألمانية جديدة على اليهود، فلما فرغ من القراءة قال لى: «هذا يا شيخ حرام عندنا فى الإسلام، نحن نترك الناس كلهم يعيشون بأموالهم»، فقلت له: نعم. وأخذت أبين له كيف عاش اليهود فى ظل الإسلام، هذا عامى من أوساط الناس متمسك بدينه ومتألم من حالة القدس الشريف ويعرف أن بلاءها من مهاجرة يهود ألمانيا وغيرهم ومع ذلك يستنكر ما يلحقهم من الظلم، وها هم اليهود اليوم قد شردتهم ألمانيا ومن قوانينها الجديدة عليهم بيع أملاكهم ببرلين بالمزاد العام ومنعهم فى المستقبل من الامتلاك، ومنعهم من صناعة الطب بتاتا.

والحكومة اليونانية منعتهم من دخول أرضها ولو على سبيل السياحة، وإيطاليا

أخذت فى اضطهادهم بأساليب علمية دقيقة وسياسية قاتلة، وفرنسا أيضا قد هبت عليها هبات من هذه السموم ستصيب اليهود أو قد أصابهم شيء من لفحها.

هذا حالهم اليوم بين الأمم المسيحية وقد عادوا ـ أو كادوا ـ كما كانوا فى القرون الوسطى لا يطمئنون على أزواجهم وأموالهم وثقافتهم إلا فى بلاد الإسلام، وها هم مع ذلك يستمرون على ظلم الإسلام فى قدس الإسلام، ولا ناهى لهم ولا ناصح ممن يسمعون لنهيه ونصحه، وما يدريهم أن هذا البلاء الذى ابتدئ بصبه عليهم هو جزاء ظلمهم لفلسطين ظلم الفعل، وظلم الرضا، وظلم السكوت عن الاستنكار، وإن الله ـ سبحانه ـ لينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الجميع.

إن الدفاع عن القدس من واجب كل مسلم، وقد هب رجالات الإسلام فى الشرق للقيام بهذا الواجب، فهنالك من ناحية الحكومات ما يقوم به وزير مصر ووزير العراق باسم ملوك العرب فى لندن، وهناك اللجنة البرلمانية المصرية للدفاع عن فلسطين تضم فريقا كبيرا من حضرات الشيوخ والنواب المصريين، وقد اعتزموا على عقد مؤتمر برلمانى عام للبحث فى قضية فلسطين على أن يشترك فى المؤتمر أيضا زعماء العرب والمسلمين فى الأوطان العربية والإسلامية التى لا توجد فيها برلمانات، وصح عزم اللجنة على أن يعقد المؤتمر فى مدينة القاهرة ١٢ شعبان ١٣٥٧ هـ ـ ١٧ أكتوبر ١٩٣٨ م

سيكون هذا المؤتمر الأول من نوعه فى الشرق العربى، وستعرف به الصهيونية والاستعمار البريطانى أنهما أمام العالمين الإسلامى والعربى لا أمام فلسطين وحدها.

فعلى المسلمين كلهم أن يؤيدوا هذا المؤتمر برفع أصواتهم إليه، وعلى اليهود الذين ينكرون ظلم الصهيونية وشرها أن يغتنموا هذه الفرصة الفريدة لإعلان استنكارهم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال الآية ٢٥] (١).

وهكذا كان لابن باديس دور إعلامى مهم بالنسبة لفلسطين وقضيتها التى شغلت العالمين العربى والإسلامى منذ أمد بعيد.

---

(١) الشهاب الجزء ٦ جمادى الآخرة ١٣٥٧ هـ ـ أغسطس ١٩٣٨ م.

أعيش للإسلام والجزائر، قد يقول قائل: إن هذا ضيق فى النظر، وتعصب للنفس، وقصور فى العمل، وتقصير فى النفع، فليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام.

فأقول: نعم، إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها، والحدب عليها فى جميع أوطانها، واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ـ هو ما نقصده ونرمى إليه ـ ونعمل على تربيتنا وتربية من آلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون وساطة فوجب التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع، ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم الإنسانية فى جميع أجناسها، فيقول:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء الآية ٧٠].

ويقرر التساوى والأخوة بين جميع تلك الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل، وإن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٣]

ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء الآية ١].

ويقرر التضامن الإنسانى العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول:

﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [سورة المائدة الآية ٣٢].

ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها، ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون الآية ٦].

يقرر شرائع الأمم، ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق فى الخيرات، فيقول:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة المائدة الآية ٤٨].

ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق، فيقول:ـ

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة الآية ٨].

ويحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب فيقول:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ [سورة المائدة الآية ٢].

ويأمر بالإحسان العام، فيقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل الآية ٩٠].

ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [سورة البقرة الآية ٨٣].

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا فى الإسلام وهو الدين الذى فطرنا الله عليه لفضله، وعلمنا أنه دين الإنسانية الذى لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وإن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وإن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته، ونشر هدايته وخدمة كل ما هو بسبيله، ومن ناحية فإذا عشت له فإنى أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها، وفى جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذى ندين به ونعيش له ونعمل من أجله.

والآن ـ أيها الإخوان ـ وقد فهمتوني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام . . . فهل تعيشون مثلي للإسلام؟ [1] .

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل القومية العربية :

جاء بكتاب آثار ابن باديس جـ٢ مجلد٢ ص١٧ ـ ٢١ قوله :

«لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه ـ عقلا وروحا وبدنا ـ لازمة له ليكون ذا أثر فعال فى الناس على منازلهم منه فى القرب والبعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملاً مشتتاً لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه ، وإنما ينفع المجتمع الإنسانى ويؤثر فى سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضى ، وأصلح من شأنه فى الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذى وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .

فمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه ، وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إنسانيا أو شعبيا إلا بمراعاته : فكان أول دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعشيرته لقوله تعالى : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [سورة الشعراء الآية ٢١٤] . فلما نزلت صعد الصفا ثم نادى : «يا صباحاه» وكانت دعوة الجاهلية إذ ادعاها الرجل اجتمعت إليه عشيرته ، فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها ، فعم وخص فقال :

«أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أكنتم مصدقىّ؟»

قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدىّ عذاب شديد ، يا بنى كعب بن لؤى ، يا بنى مرة بن لؤى ، يا آل عبد شمس ، يا آل عبد مناف ، يا آل عبد المطلب ، يا صفية ، يا فاطمة سلونى من مالى ما شئتم ، واعلموا أن أوليائى يوم القيامة المتقون ، فإن تكونوا يوم القيامة مع قرابتكم فذلك وإياى لا يأتى الناس بالأعمال

---

(١) ملخص محاضرة ألقاها الشيخ عبد الحميد بن باديس على أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية ونشرتها مجلة (الشهاب) ديسمبر ١٩٣٦م.

وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهى عنكم، فتقولون يا محمد فأقول هكذا ـ وصرف وجهه إلى الشق الآخر ـ غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها . . ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [سورة السجدة الآية ٣].

وهم عامة العرب، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم، ثم عمم دعوته لقوله تعالى :

﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام الآية ١٩].

فكاتب ـ صلى الله عيله وسلم ـ ملوك الأمم، وقد عمت دعوته العرب، وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم فى الإسلام وكان ذلك أيام هدنته مع قريش قبيل فتح مكة ـ ثم تجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب، وعولجت فيه مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية، وما كان منهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم، فكان أول الإصلاح متوجها إليهم ومعنيا بهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم وكان فى هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه، ويشتركون فيه، وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [سورة الزخرف الآية ٤٤]

فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه ـ نزل بلغتهم وينهض بهم من كبوتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهيأهم لهداية الأمم وإنقاذها من الهلاك وقيادتها لعزها وسعادتها، وأنهم يسألون عن هذه النعمة . . يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين.

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام، علم هذا فبين أن من يتكلم بلسان العرب فهو عربى، وإن لم ينحدر من سلالة العرب، فكان هذا من غايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له.

بين هذا فى حديث رواه ابن عساكر فى تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهوى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى

وصهيب الرومى وبلال الحبشى، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا (يعنى الفارسى والرومى والحبشى ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه) فقام إليه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ فأخذ بتلابيبه (ما على نحره من الثياب) ثم أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بمقالته فقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغضبا يجر رداءه (لما أعجله من الغضب) حتى أتى المسجد ثم نادى: الصلاة جامعة (ليجتمع الناس) وقال ـ صلى الله عليه وآله سلم ـ : «أيها الناس، الرب واحد والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى».

فقام معاذ فقال: فما تأمرنى بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل.

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذى يكوّن الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذى يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد: ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا مثلا ينطقان باللسان العربى ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب فى ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة فى توحيد الأمم.

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبى الكريم، رسول الإنسانية ورجل القومية العربية فى الحديث المتقدم فقضى بكلمته تلك على العصبية والعنصرية الضيقة المفرقة، فنبه على تساوى البشر فى أنهم كلهم مخلوقون لله، فربهم واحد وإنهم كلهم من عنصر واحد، فأبوهم آدم واحد، وذكر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنسانى ثم قرر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع فى تكوين الأمم، ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتتسع دائرتها لجميع الأمم التى رشحت لدعوتها إلى الإسلام بلغة الإسلام، وقد كان ذلك من أعظم ما سهل نشر الهداية الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها وتعاونها ذلك التمدن الإسلامى العربى الذى أنار العالم شرقا وغربا، وكان السبب فى نهضة الغرب والأساس لمدنية اليوم، وبذلك أيضا كانت الأمة العربية لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة.

كوّن رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل، فلم يكوّنها لتستولى على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المتسولين باسم الملك أو باسم الدين، ولم يكوّنها لتستخدم الأمم فى مصالحها، ولكن لتخدم الأمم فى مصالحهم، ولم يكوّنها لتدوس كرامة الأمم وشرفها، ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد إلى درجات العز والصلاح والكرامة وبالجملة، لم يكوّنهم لأنفسهم بل كوّنهم للبشرية جمعاء، فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم «جوستاف لوبون» لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب، نعم لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذى كان له الفضل - بإذن الله - عليهما ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين بهذا الفضل، وتتغنى العرب غير المسلمين بذكره، وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا النصارى العرب بالشرق من حلل البيان فى الثناء عليه والإشادة بفضله.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذى نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته . . . ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون . . . وخدع المخدوعون . . . واضطرب المضطربون» [(١)]، [(٢)].

منهج ابن باديس فى التعريف بالرجال

الشيخ رشيد رضا

وكما كان لابن باديس منهج فيما أصدر من فتاوى كان له أيضا منهج فى التعريف بالرجال، منهج لا يتوخى التعقيد اللفظى بل فى سهولة ويسر يهتم بكل صغيرة وكبيرة، وفى أمانة تاريخية متناهية، تقدم الشخصية بكل أبعادها، وهو هنا يعرف بالشيخ «محمد رشيد رضا» وتعريفه ليس مجرد سرد تاريخى إنما تداخل بالرأى يضفى على التعريف نوعًا مميزًا من الموضوعية يبدأ بمولد الشيخ، ثم تتوالى عناصر التعريف به من كل الجوانب.

---

(١) آثار ابن باديس جـ٢ مجلد٢ ص ١٧ ـ ٢١ .

(٢) الإسلام والعروبة ـ د/ محمد عمارة .

مولد الشيخ ونشأته :

ولد الشيخ رشيد رضا عام ١٢٩١هـ ـ ١٨٦٥م بقرية من قرى لبنان .

ببيت شرف ودين وعلم وفضل وصلاح يعرفون بالمشائخ من قريتهم وإليهم يرجع أهلهم فى الدين وإصلاح الشئون .

ونشأ فى هذه البيت الطاهر ، نشأة علم ودين ، وتقوى وشعور بواجبات القيام بحاجات الناس وإيصال الخير إليهم .

تعلمه وشيوخه :

قرأ القرآن وتعلم الخط والحساب فى كتاب قريتهم ، وحبب إليه من الكتب كتب الأدب والتصوف ، فكان يقرأ كتاب الإحياء لحجة الإسلام الغزالى ، فطبعه بطابع الزهد والتدين وأكسبه ملكة العربية الفصيحة والأسلوب المرسل فى البيان . ثم أدخل مدرسة ابتدائية جميع التدريس فيها باللغة التركية فلم يقم فيها إلا سنة ، ثم فى سنة ١٣٠٢هـ دخل مدرسة الأستاذ حسين الجسر ، وكان هذا العلامة أنشأ مدرسة لتعليم علوم الدين واللغة العربية واللغات الأجنبية والعلوم الدنيوية على الطريقة العصرية مع التربية الإسلامية الوطنية . فتخرج فى العلوم العربية والشرعية والعقلية على الأستاذ الجسر فى مدة ثمانى سنوات وكتب له شهادة العالمية .

وتشبع بروحه فى ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرانية مع التربية الإسلامية لنهضة الأمة . وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة محمود نشافة ، وحضر قليلا من كتاب نيل الأوطار للشوكانى على العلامة الشيخ عبد الغنى الرافعى واستفاد كثيرا من معاشرته فى العلم والأدب والتصوف ، وتلقى بعض كتب الحديث على العالم المحدث الشيخ محمد القاوقجى .

الكتب التى خرجته :

شغف بكتاب الإحياء فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح فى زهده وأخلاقه وإخلاصه فى العلم وتقواه فى العمل ، وكان طريقه منه فى فهم الدين أنه دين روحانى أخروى فقط ، وأن إرشاد المسلمين محصور فى «تصحيح عقائدهم ونهيهم عن

المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا» . ثم اتفق له فى أثناء مدة طلبه للعلم ـ وهو يقلب أوراقا علمية لأبيه ـ أن وجد عددين من جريدة العروة الوثقى التى كان يصدرها حكيم الشرق جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فقرأهما بشوق ولذة ؛ بعثاه على البحث عن بقية أعدادها ، فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة ؛ أحدثت فيه أثرا جديدا ونقلته من طور إلى طور وصار طريقه فى فهم الإسلام أنه «دين روحى جسمانى أخروى دنيوى من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل» وأن إرشاد المسلمين يجب أن يكون ـ مع تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات ـ «إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة» .

تنسكه :

حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم على الأرض وغير ذلك ، وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه أبى المحاسن القاوقجى أعبد عباد شيوخ الطريق فى وقته ، ورغب منه أن يسلكه الطريق على الأصول العملية إذ لم يعجبه أن يسلك الطريق على وجه صورى من تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات ، فقال له الشيخ «يا بنى إننى لست أهلا لما تطلب فهذا بساط قد طوى وانقرض أهله» ثم تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان تنسكه ـ أولا ـ تصوفا طرقيا شاذليا فنقشبنديا بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال .

تخلص نسكه من الباطل والضلال :

دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليل للإمام المرتضى الحسينى ، فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية فى تخريج أحاديث الإحياء ؛ فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة وتخلص مما فى كتاب الإحياء من الخطأ الضار ـ وهو قليل ـ «ولا سيما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو فى الزهد وبعض العبادات المبتدعة» وترك أوراد الشاذلية لما علم أن قراءتها «من البدع التى جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التى شرعها الله تعالى على ما فيه (أى ورد السحر وأمثاله) من الأمور

والأقسام المنتقدة شرعا» واستبدل بها قراءة القرآن وورداً آخر فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم «ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكرة ومضاهاة الشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع» كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها «غير المشروع المخالف لجميع ما ورد فى الذكر المأثور» وبين ما فى رابطتها من شرك أو بدعة.

فتخلص نسكه ـ بعد طرح ذلك كله ـ للتنسك الإسلامى من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال، وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله فى جميع الأعمال والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة فى العبادات المشروعة والاعتصام بالورع، موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضى الله عنهم أجمعين. وهذا هو الذى يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف فى كلام علماء السنة والأثر. وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم. فهذا هو تنسكه وهذا هو تصوفه.

تعليمه وإرشاده:

تصدى للتدريس فى مسجدهم. حيث كان عمه ـ كأسلافه ـ يقوم بالإمامة والخطابة والتدريس فكان يقرئ للرجال دروسا فى الفقه الشافعى ودروسا فى التوحيد بالسنوسية، ولما رأى صعوبتها عليهم وضع لهم عقيدة سهلة، وكان يريهم فى تعليمهم بما يحثهم عليه من القيام بالشعائر الدينية، وكان يلقى عليهم المواعظ الدينية معتمدا فيها على آيات القرآن العظيم. ثم لم يكتف بما يقوم به من التعليم والإرشاد فى المسجد، فكان يذهب إلى مقهى يجتمع فيه العوام فيعظهم ويرشدهم حتى هُدِىَ منهم مَنْ هدى الله.

ورأى على المرشد هداية النساء مثل ما عليه هداية الرجال، فكن يجتمعن فى دار أسرته فيلقى عليهن العقائد والأحكام والآداب فى عبارات سهلة بدون كتاب، وكان يأمرهن بتغيير زيهن بما هو أستر وأطهر حتى تكون المرأة فى الشارع كما تكون فى الصلاة.

أمره بالمعروف وتغييره للمنكر:

كان بعد ما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من كتاب الإحياء ـ يأمر وينهى لا يخاف لومة لائم وأول حادثة صدع فيها بالنهى عن المنكر فى حفل عظيم من الناس ـ كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية ورأى رقصهم وحلقة غلمانهم فصاح

فيهم بما معناه «أيها المسلمون إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عنه، لأنه إقرار له وإنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ [سورة الأعراف الآية ٥١] وإننى قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله» وخرج مفارقا لهم.

ما وقع بينه وبين شيخه الجسر بسبب هذا الإنكار :

كان الشيخ الجسر على علمه بالعلوم الشرعية وإلمامه بالعلوم العصرية شيخا فى الطريقة الخلوتية، فكان ينصح لتلميذه بأن يكف عن أهل الطريق ولكن لا يأتيه على ما يفعلونه مما يبتدعونه فى الإسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل. وكان السيد يقول له «أقنعنى بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لى أرجع إلى قولك» فكان يجيبه الشيخ بقوله «أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندى غير ما قلته» وكما كان ينكر على العامة كان ينكر على الحكام والكبراء ما يراه منهم لا يخص بإنكاره أحدا دون أحد، وكذلك كل ما كان عن عقيدة ولوجه الله من الأعمال لا يتركه صاحبه على كل حال.

هذه ترجمة السيد قبل هجرته إلى مصر، وقد رأينا أنه صار عالما معلما مرشدا ذا منزلة رفيعة فى العلم والتقوى والنصح للمسلمين وهو بعد فى أول العقد الثالث من عمره، وسنعرض فى الجزء الآتى لترجمته بعد رحلته [١] أو هجرته إلى مصر.

سبب الهجرة إلى مصر :

ما كانت البلاد العثمانية فى عهد استبداد عبد الحميد لتتسع لمثل السيد رشيد فيما يريده من إصلاح عام، وما كان هو ليستطيع الصبر على القعود عما اعتقد وجوبه وجوبا حتميا من النهوض بالإصلاح، فكان لزاما عليه أن يفكر فى الخروج. ولم يكن يصلح لمقصده إلا مصر. هذا إلى ما كان له من رغبة فى الاتصال بالأستاذ محمد عبده والأخذ عنه والتكمل به.

---

(١) الشهاب جـ ٧ غرة رجب ١٣٥٤هـ ـ أكتوبر ١٩٣٥م.

سبب تعلقه بالأستاذ الإمام وأول تعرفه به :

كانت مطالعته لمجلة العروة الوثقى باعثا لإعجابه بالإمام جمال الدين الأفغانى وشغفه والشوق إلى لقائه، وكان كاتبه وهو بالآستانة فى ذلك ولم يساعده القدر على لقائه، وكان حبه للإمام جمال الدين مستلزما لحبه لتلميذه ومعينه ووارث علمه وحكمته ومحرر العروة الوثقى الشيخ محمد عبده، وكان السيد قد التقى به ببلدة طرابلس من أرض الشام وتعرف به وحضر مجالسه فازداد به شغفه وتعلقه. فلما توفى السيد جمال الدين سنة ١٣١٤هـ عزم على الهجرة إلى مصر والاتصال بالأستاذ الإمام.

آثار اتصاله بالأستاذ الإمام :

جاء السيد رشيد إلى مصر وهو عالم مفكر وكاتب متبصر، فصحب الأستاذ الإمام صحبة العالم الصغير للعالم الكبير، فكان من أول آثار ذلك إصداره للصحيفة الإصلاحية التى كان يستمد روحها من الأستاذ الإمام، ثم رغبته فى إلقاء دروس التفسير التى كانت أساسا لتفسير المنار، ورغبته إليه فى إقراء علم البلاغة من كتابى إمامها «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» فكانت قراءتهما فتحا جديدا فى العربية كما كانت دروس التفسير فتحاً جديدا فى الدين.

وفاء السيد للأستاذ الإمام فى حياته وبعد وفاته :

كان السيد الساعد الأيمن والعضد الأشد للأستاذ الإمام فى جميع ما قام به، كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمِدْرَهَ الصمصام فى الدفاع عنه. واستمر السيد على وفائه للأستاذ الإمام بعد وفاته كما كان فى حياته، وماعرّف المصريين وغير المصريين قدر الأستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلد لهم آثاره إلا السيد رشيد وكان إلى آخر حياته ـ وقد فاق أستاذه فى نواح عديدة من العلم ـ لا يفتر يلهج بأستاذه حتى كاد ينسى الناس نفسه وأثره الخاص فى الدين والعلم والإصلاح.

مواقفه بعد الأستاذ الإمام :

مضى السيد الرشيد بعد الأستاذ الإمام مضطلعاً بأعباء خطته الإصلاحية واتسعت آفاق أعماله إلى العالم الإسلامى كله، وكان لابد له من أن يصطدم بالحالة السياسية التى عليها العالم الإسلامى، والتى هى بطبيعتها العقبة الكئود فى سبيل كل إصلاح فأصبح السيد رشيد من الفرسان المعلمين فى ميدانى الإصلاح الدينى والاجتماعى، وكان فى كليهما يصدر عن إيمان ويجالد بقوة وينظر بحكمة ويفحم ببرهان.

غايته السياسية :

لقد كانت غايته السياسية الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزا للأمم الإسلامية فى العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية، وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثمانى وجميعة الاتحاد والترقى. فلما تبينت له منهم النعرة الملية الضيقة؛ ناوأهم وعمل على إيجاد مملكة عربية إسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية التى كان يرى الاتحاديين سائرين بها إلى الانهيار، فانضم إلى الجمعية العربية العاملة فى مصر وأوروبا لهذا الغرض. ولهذه الغاية كان مع الشريف حسين يوم أعلن الثورة العربية حتى إذا تبين غدر الحلفاء بما كان من معاهدة «سايس ـ بيكون» ورأى الشريف حسين لا يرجع عن اغتراره بهم ـ نفض يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمى كله. ولغايته التى ذكرنا كان ساير إمام اليمن يوما حتى تبين له أن نطاق المذهب الزيدى لا يتسع لأمم الإسلام ـ وفى أثناء هذا أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح فى الأفق حتى فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمى المتداعى وانتصابها مكانه بمكة المكرمة، فوجد فيها السيد رشيد ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الإسلامى وتقف عند حدوده وتحيى سنته وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات وتنتمى إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى، فشمر عن ساق الجد لمؤازرتها وتأييدها وإرشادها ووجد من ملكها الملك عبد العزيز آل سعود الرجل المسلم الذى يعمل للدين وينتصح لكل ناصح فيه، فسار معه السيد رشيد إلى غاية واحدة حتى قضى وهو فى طريق رجوعه من تشييع ولى عهده.

فإذا كان يظهر من السيد رشيد تبدل فى سيره السياسى فإنما هو تنقل من طريق إلى طريق فى سبيل الوصول إلى غاية معينة، فلما وجد الطريق اللاحب البين سلكه حتى مات رحمة الله عليه.

أثر السيد رشيد فى العالم الإسلامى :

إن السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الحكيم على صفحات المنار وما كتب فى المنار وغير المنار ـ وهو الذى جلى الإسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين، وهو الذى لفت المسلمين إلى هداية القرآن، وهو الذى دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه وهتك أستارهم حتى صاروا لايحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم فى العالم ـ إصلاحا وهداية، بيانا ودفاعا ـ كلها من آثاره فرحمه الله وجزاه أفضل ما يجزى العاملين [1].

---

(١) الشهاب جـ ٩ غرة رمضان ١٣٥٤ هـ ـ ديسمبر ١٩٣٥ م .

ومن الأقوال والمقالات والتعريف بالرجال ننتقل إلى بعض الأمثلة من فتاوى ابن باديس، فقد كان له منهج يعتمد فيه على النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة مع تحكيم العقل، ولا اجتهاد مع النص.

وفى الأسئلة التالية والإجابة عنها ما يؤكد هذا المنهج.

* * *

• **سؤال:**

ما قول ساداتنا العلماء ـ رضى الله عنهم، وأدام النفع بهم ـ فى رجل يزعم أنه قطب الزمان الفرد، وأن الكل دونه، وأنه العارف المسلك، إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثم يقول مخاطبا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما نصه:

إن مت بالشوق منكد ... ما عذر ينجيك
إن تبق فى هجرى زائد ... للمولى ندعيك
من هو بالملك موحد ... ينظر فى أمرك
عبس بالقول تساعد ... ما نرجوه فيك

ولما قيل له فى هذه الأبيات قال: ألسن المحبين أعجمية. فهل يعد خطابه هذا سوء أدب؟ وهل تجوز مخاطبة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بمثله، وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين، وهل يقبل منه ما اعتذر به من عجمة ألسن المحبين؟ أفيدونا مأجورين إن شاء الله تعالى من رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. انتهى.

الجواب:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أدبه الله فأحسن تأديبه، ووفر من كل خير وكمال على جميع العالمين نصيبه، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الهادين والمهتدين، والتابعين لهم بإحسان

إلى يوم الدين، أما بعد. فقد وقفت على سؤالكم وتأملت من جميع فصوله، وأحطت خبراً إن شاء الله - تعالى - بلفظه ومدلوله، وهممت ألا أجيبكم عنه بحرف واحد، لما أعلم من تصميم أكثر العامة على العناد فيما اعتقدوه من الباطل، وسكوت أكثر الخاصة عن التصريح بالإنكار عليهم، والإرشاد لهم، وتهافت بعض الطلبة القاصرين، على تسويد صحفهم وصحائفهم بشبهات يسمونها بأفواههم دلائل وأجوبة عن متبوعيهم من الجاهلين، يحشونها بالأحاديث الضعيفة والموضوعية والتأويلات الباطلة الممنوعة، والروايات المدخولة عمن ليس قوله حجج على الناس فى الدين وإنما غايته إذا ثبت عنه ذلك وحسن به الظن أن يؤول على وجه صحيح يقبله الشرع. ثم يردون بمثل هذا على الآيات البينة والأحاديث الثابتة وعمل السلف الصالح المشهود لهم بالخيرة على لسان المعصوم. أفمع هؤلاء ينفع الكلام أو يحسن الجواب؟! لكننى تذكرت ما جاء فى وعيد الكاتبين، وفى وعد من بذل الجهد فى نصح إخوانه المسلمين، ورجوت ألا أعدم أنصاراً على الحق، وإخوانا متكاتفين فى نصرة الدين، من عدول حملة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فاستخرت الله تعالى وحررت لكم هذا الجواب فى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، غير قاصد - علم الله - شخص أحد بالنقص، ولا خارج - بعون الله تعالى - عن جادة الفهم من دلالة الظاهر والنص، والله أسأل أن ينفع به المسترشدين ويهدى به فى المعاندين ويفت به أعضاء المفسدين آمين.

قسم ابن باديس إجابته على السؤال إلى:

(أ) مقدمة فى وجوب الأدب مع النبى - صلى الله عليه وسلم.

(ب) خروج السائل عن دائرة الآداب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية.

(جـ) بيان حرمة مخاطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - بمثل هذا الخطاب.

(د) المقال لايصدر من العارفين.

(هـ) بطلان عذر السائل بعجمة ألسن المحبين.

(و) الخاتمة.. نصحية نافعة ووصية جامعة.

أ - المقدمة فى وجوب الأدب مع النبى ـــ صلى الله عليه وسلم:

أجمع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - حيا وميتًا كما يجب الإيمان به حيا وميتًا للنصوص القطعية فى ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

وَتُوَقِّرُوهُ.. ﴾ [سورة الفتح الآيتان ٨ـ٩]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [سورة الحجرات الآية ١]. قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٢]. وعلى هذا كانت سيرة السلف الصالح معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحياة وبعد الممات. روى الترمذى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما. وجاء من غير وجه أن أصحابه كانوا حوله كأنما على رءوسهم الطير حتى كانوا من تعظيمه وتوقيره يهابونه فلا يسألونه فيحبون أن يأتى الأعرابى الجاهل فيسأله، ولما ناظر أبو جعفر المنصور مالكا فى المسجد النبوى ورفع صوته، قال له مالك: لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قومًا فقال: ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ.. ﴾ [سورة الحجرات الآية ٢]. ومدح قوما فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٣]. وذم قوما فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٤][*]. إن حرمته ميتًا كحرمته حيا. فاستكان لهما أبو جعفر[1] وقد كان

(*) أى فيما فعلوه محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم، الجلال المحلى. ومعنى الرفيع: العلى القدر والمحفوظ من إساءة الأدب، اهـ. صاوى. نعم، إذا كان من يقول لشيخه: لم، لا يفلح، فكيف بالتجاسر على خير الخلق على الإطلاق بالإطباق صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) وقال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ [سورة النور: ٦٣]. بأن تقولوا يا محمد. قولوا يا نبى الله يا رسول الله، فى لين وتواضع وخفض صوت، اهـ. محلى. قوله: لا تجعلوا دعاء الرسول أى نداءه، بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله، يا نبى الله، يا إمام المرسلين، يا رسول رب العالمين، يا خاتم النبيين. واستفيد من الآية أنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم لا فى حياته ولا بعد وفاته. فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة. قوله: وخفض الصوت أى لقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ [سورة الحجرات ٢]. صاوى محشى الجلالين بالحرف. وفى الشفا ما نصه قال: قال إبراهيم التيمى: واجب على كل مؤمن متى ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ فى هيبته وفى جلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه صلى الله عليه وسلم ويتأدب بما أدبه الله، مثل قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم...﴾ إلخ، و﴿لا ترفعوا أصواتكم...﴾ وغيره كما تقدم. اهـ.

مالك ـ رحمه الله تعالى ـ إذا ذكر النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتغير وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه.

وكان جعفر الصادق كثير الدعابة والتبسم، وإذا ذكر عنده النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اصفر. والواقف على سير السلف الماضين والعلماء والمتقدمين يجد فيها كثيرا من هذا فى مراعاة حرمته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشدة التأدب مع جنابه الشريف، ومن أكثر الناس محافظة على الأدب وتحريضا عليه ووصاية به شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين كرجال الرسالة القشيرية الذين أبقى الله بعظيم فضله على الإسلام وجميل صنعه لنصرة الدين كلامهم حجة على كل من ينتسب إلى طريقتهم فى مثل هاته الأزمان، قال فى الرسالة عن عبد الله بن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، وعن أبى الدقاق: من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل، وقال أبو حفص الحداد: التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال. ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو الوصال، وقال: حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن.

ب ـ بيان خروج السائل عن دائرة الأدب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية:

قال:

إن مت بالشوق منكد ما عذر ينجيك

أى حق للعبد الحقير على السيد الجليل الكبير، حتى يطالبه بالاعتذار إليه إذا لم يأته؟! أم كيف ساغ لهذا المسكين أن يقول له لا عذر ينجيك، م ينجيه هذا العذر؟ إن لو كان ينجيه، أمن اللوم فى شأنك والعتاب لأجلك؟ من أنت يا هذا حتى يعتذر سيد الأولين والآخرين لك، ثم لا ينجيه من التقصير فى حقك عذر عندك؟! لقد وضعت نفسك والله فى غير محلها وجهلت مقام النبوة وجلالة منصبها.

قال:

إن تبق فى هجرى زائد للمولى ندعيك
من هو بالملك موحد ينظر فى أمرك

أى حق لك على النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى صرت تخوفه بأنك تدعوه وتشكو به إلى الله ـ تعالى ـ لينظر فى أمره، وهل يتصور منه ـ صلى الله عليه

وآله وسلم ـ تقصير فى حق أحد حتى يشكو به إلى الله ـ تعالى ـ حاشا ذلك الجناب الكريم، والنبى الرءوف الرحيم[1] أن يقصر فى خير لأحد فى حال حياته وبعد مماته وكيف ذلك وهو الذى قال له الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء الآية ٣][2]. وهو الذى لما تعرض عليه فى قبره أعمال أمته يستغفر للمذنبين، لكنك يا مسكين توهمته كعظماء الدول الذين يقصرون مع من دونهم فيخوفون بمن يفوقهم، على أنه لم يكن من أدب العبيد أن يهددوا الوزير بسلطة الأمير، فأين أنت يا هذا حتى من آداب الوزراء والسلاطين بل الأنبياء والمرسلين؟

قال:

عبس بالقول تساعد ما نرجـــوه فيك

هذا تعريض للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما خاطبه الله تعالى فى سورة ابن أم مكتوم، وتخويف له بما يلحقه إن قصر مع هذا المسكين من العتاب واللوم، واحتجاج عليه بالقرآن، وإلزام له بالقبول والإتيان، وهذا تهجم عظيم، وتجاسر شديد، لا يقدم عليه عامة المؤمنين، فكيف بمن يزعم أنه خاصة العارفين؟

جـ ـ بيان حرمة مخاطبة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمثل هذا الخطاب:

قد اشتمل صدرهذا الكلام على نفى قبول العذر من النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذلك يستلزم أن له عليه حقا إن وقع فيه تقصير احتيج معه إلى العذر ثم لا يقبل منه. وعلى أنه يرفع به دعوى لينظر فى أمره، وهذه التهجمات القبيحة التى لا تصدر من العبيد إلى السادة، هى لاشك أقوى فى سوء الأدب من مجرد رفع الصوت الذى ينهى الله تعالى عنه وجعله سببا فى حبوط الأعمال، فتكون قطعا أحق بالمنع والتحريم. وما أشبه طلب هذا الرجل القبول والإتيان بهذا الخطاب المزعج الغليظ بأولئك الذين نادوه من وراء الحجرات ولم يصبروا حتى يخرج إليهم. بل هو أشد، لأن القوم كانوا حديثى عهد بجاهلية لم يخالطوا المسلمين ولا تأدبوا بآداب الإسلام. وهذا يدعى منزلة الأولياء والصالحين، ثم يأتى بما لا يصدر من العامة الجاهلين فيا ليته:

---

(١) القائل إنما أنا قاسم والله يعطى. . إلخ.

(٢) وقال تعالى فى سورة التوبة الآية ١٢٨: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾.

تأدب فى الخطاب، ووقف ذليلا على الأعتاب، فيكون فى إسلامه وأدبه. خير شفيع لوصل سببه، لكن الغرور والغفلة، أعظم أسباب المحنة، عياذًا بالله: وأما آخر كلامه فقد اشتمل على طامة عظمى وجرأة كبرى بتعريضه للنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فى سورة عبس على ما تقدم فى آخر الفصل الأول، وهذا فى سوء الأدب أدخل، وفى الحرمة أشد، لأن صاحبه قد اعتقد تقصيرا من النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - ليم عليه فعرض له هو به، وخوفه من أن يقصر معه مثل ذلك التقصير فيلام عليه مثل ذلك اللوم. كبرت كلمة والله خرجت من فِيهِ هذا المغرور المسكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا توفيق إلا به.

فإن قلت هذه قصة جاءت فى القرآن وخبر ذكره الله تعالى. قلنا فالجواب عن ذلك ما قاله الإمام الحافظ خزانة العلم وقطب المغرب أبو بكر بن العربى فى سورة «ص» من كتاب الأحكام. قال: للمولى أن يذكر ما شاء من أخبار عبيده ويستر ويفضح ويعفو ويأخذ، وليس للعبد أن ينبز فى مولاه بما يوجب عليه اللوم، فكيف بما عليه فى الأدب والحد، وإن الله تعالى قد قال فى كتابه لعباده فى بّر الوالدين: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [سورة الإسراء الآية ٢٣]. فكيف بما زاد عليه، فما ظنك بالأنبياء وحقهم أعظم، وحرمتهم آكد، وأنتم تغمسون ألسنتكم فى أعراضهم، ولو قررتم فى أنفسكم حرمتهم لما ذكرتم قصتهم، اهـ.

وما بعد هذا البيان بيان، وإن هذا الكلام لكاف وحده عند اللبيب المنصف فى جواب ما تقدم من السؤال، ومن عقائد الإيمان مما يجب علينا فى حق الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - ألا نخاطبهم بما خاطبهم الله تعالى به ولا نذكر فى كلامنا شيئا مما عوتبوا عليه لا بالتلويح ولا بالتصريح إلا بحكاية لفظ القرآن والحديث، وأما الله تعالى فإنه يخاطبهم بما شاء، لأنهم عباده وصفوته من خلقه، لهم من كمال المعرفة به ما ليس لغيرهم، وله عليهم من الفضل العظيم ما لا مطمع فيه لسواهم، وأما نحن فموقفنا معهم موقف العبيد مع السادة، فيجب علينا معهم اعتقاد الحرمة، وإكبار الجانب، ولزوم الأدب، فى الأقوال والأفعال، وجميع الأحوال. ولا يجوز لنا ونحن خدامهم وأتباعهم أن نذكرهم أو نخاطبهم بما خاطبهم به ربهم ومالكهم، فما أبعدنا والله عن ذلك المقام، وقد ذكر هذه العقيدة الإمام الحافظ أبو بكر بن العربى فى كتبه منها قوله فى سورة «الأحزاب» من كتاب الأحكام: وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا، إن أحدا لا ينبغى أن يذكر نبيا إلا بما ذكره الله لا يزيد عن ذلك. اهـ. وقال الإمام

الصوفى أبو عبد الله بن الحاج فى كلامه على المواسم من كتاب المدخل: وقد قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ إن من قال عن نبى من الأنبياء فى غير التلاوة والحديث إنه عصى أو خالف فقد كفر نعوذ بالله من ذلك، اهـ. ونقل هذا الكلام عنه الشيخ محمد الزرقانى فى قسم الخصائص من شرحه للمواهب وسلمه: ولا يخفى أن حكم التعريض فى هذا المقام حكم التصريح. فنعوذ بالله بالدين وتوقع فى سوء الأدب مع سيد المرسلين ولا حول لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

د ـ هذا المقال لا يصدر من العارفين:

اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قدمًا فى محبة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتعظيم حرمته، ومراعاة شريف جانبه، وتعزيزه وتوقيره وبره. تجد ذلك فى صلواتهم عليه، وفى أدعيتهم لله تعالى عن ذكره، والتوسل به، وفى مناجاتهم له عند الشوق إليه، وفى تأليفهم عند الكلام فى حقه. وهذه أشياء مروية عنهم، معروفة منهم، لا تحتاج إلى شاهد ولا تخفى على طالب. بل هم أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومربيهم ومريديهم، بل هم آدب الناس من جميع الناس، قال قائلهم: من لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له. وكتبهم بهذا طافحة، وسيرهم أصدق شاهد عليه. فمعاذ الله أن يكون مرتكب ما تقدم مع الإصرار عليه من عامة عامتهم فضلاً عن أن يكون ممن فوق ذلك؛ إذ لا نشك أن ذلك الخطاب الغليظ الجافى لا يقوله المؤمن العامى الباقى على فطرة الإيمان، فضلا عن أهل الخصوصية والعرفان.

ومن لا يراعى الأدب فى خطاب سيد المرسلين. كيف يصلح أن يكون من العارفين السالكين، إذ من لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره. ومن لم يؤمن على آداب الخطاب كيف يؤمن على ما يدعيه من مقامات الكاملين؟! قال أبو يزيد البسطامى ـ رحمه الله تعالى ـ لبعض أصحابه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية. وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد. فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه اهـ.

فانظر ياأخى رحمك الله بإنصاف إلى هذا العارف الكبير كيف يكون وزن الرجل بميزان الشرع فطرحه لإخلاله بأدب واحد من الآداب ـ فكيف بنا لا نطرح هذا المتهجم

على رسـول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقبيح التعريض وسوء الخطاب . قال أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب الاعتصام إثر كلام أبى يزيد المتقدم : هذا أصل ، أصّله أبو يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ للقوم ، وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة وإن كان ذلك جهلا منه[1] . فما ظنك به إذا كان عاملا بالبدعة كفاحا اهـ .

ونقول : فما ظنك به إذا كان يتهجم على الحضرة النبوية بمثل ذلك الخطاب الذى لا نظير له فى كلام صغار المتنسبين ، وعامة المداحين الجاهلين فضلا عن كلام العارفين؟ وقال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى شرحه لكتاب الطريقة المحمدية ، عند كلام أبى يزيد المتقدم : إن الله ـ تعالى ـ لا يؤمن على أسراره وأنواره إلا من أمنه أولا على الأخلاق المرضية ، والآداب المحمدية ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته ـ والحكمة وضع الشىء فى موضعه ، وهى ملازمة لأفعال الله ـ تعالى ـ لا ينفك عنها فعل من أفعاله تعالى ألبتة ، وليس من الحكمة وضع الولاية والكمال فى المنتهك الحرمة والتارك للآداب ، بل الحكمة تقتضى عقابه لا ثوابه أو العفو عنه لا المدح منه . اهـ .

فلا نشك بعد هذا فى بطلان دعواه الواسعة المضادة لتهجمه وإصراره على سوء الأدب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا دليل على حال المرء مثل كلامه ولا أصدق على قلبه من ترجمان لسانه[2] .

هـ ـ بطلان عذر السائل بعجمة ألسُن المحبين:

اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها فى نبيها وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه .

لما نزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٢] قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : والله لا أكلمك بعدها إلا كأخى السرار ، وصار عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ لا يسمعه حتى يستفهمه ، ولزم ثابت بن قيس ـ رضى الله تعالى عنه ـ بيته وكان جهير الصوت مخافة أن يحبط عمله حتى اعتذر للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فعذره وبشره بالجنة فأنزل فيهم وفى أمثالهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٣] . هؤلاء هم الحجة على الخلق وهم الذين لا يبلغ من جاء

---

(١) يعنى أن الوالى من لا يكون للشرع عليه اعتراض .

(٢) ما فيك يظهر على فيك وكل إناء بالذى فيه يرشح

بعدهم مد أحدهم ولا نصيفه، وهذا أدبهم وهم سادات المحبين، وقد كانت ألسنتهم - والله - فصيحة فى العلم والآداب، منزهة عن كل ما يعاب، فما بال هذا المسكين يركب ذلك المركب الصعب ويخرق سياج الأدب، ويعتذر بعجمة ألسن أهل الحب، كلا والله، لقد تجاسر على أهل المحبة الحقيقيين وافترى عليهم، وادعى عليهم ما ليس فيهم، ثم لا يجد أبدا نظيرا لكلامه عند واحد منهم، وإن اقتدى ببعض المغرورين المتعجرفين ممن لم نعلمهم حتى الآن. فالحجة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وشيوخ الطريقة المتقدمين قاطعة به وبأمثاله أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

و - الخاتمة نصيحة نافعة ووصية جامعة:

اعلموا - جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجملكم بعزة الاتباع، وجنبكم ذلة الابتداع - أن الواجب على كل مسلم فى كل مكان وزمان أن يعتقد عقدا يتشربه قلبه وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبنى عليه أعماله، أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان إنما هو فى القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين أتباع التابعين، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول - قولا كان أو عملا أو احتمالا - فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه - كائنا من كان فى كل زمان ومكان - فاحفظوها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى، فقد تضافرت عليها الأدلة - من الكتاب والسنة، وأقوال أساطين الملة، من علماء الأمصار، وأئمة الأقطار، وشيوخ الزهد الأخيار. وهى لعمر الحق لا يقبلها إلا أهل الدين والإيمان، ولا يردها إلا أهل الزيغ والبهتان. والله أسأل التوفيق لى ولكم ولجميع المسلمين، والخاتمة الحسنة والمنزلة الكريمة فى يوم الدين، آمين. والحمد لله رب العالمين.

قال مؤلفه عبد الحميد بن باديس عفا الله عنه:

«فرغت من تحريره بين عشية يوم الاثنين وصبيحة يوم الثلاثاء السادس والعشرين والسابع والعشرين من ذى الحجة الحرام عام ١٣٤٠هـ[1].

* * *

(١) رسالة: جواب السؤال عن سوء مقال ص ١ - ٢٠ المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة (دون تاريخ).

وأمثلة أخرى من فتاوى ابن باديس:

* سأل سائل عن جواز لباس الرجال مثل لباس النساء، وظهورهم في زيهن على خشبة المسرح، فكان الجواب من رئيس الجمعية كما يلى:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لعن الرجل يلبس لبس المرأة، والمرأة تلبس لبس الرجل، رواه أبو داود وغيره بسند رجال الصحاح، وروى أصحاب السنن عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهون[1] من الرجال بالنساء، وبهذه الأحاديث النبوية علم أن تزيى الرجل بزى المرأة الواضح من السؤال حرام لأن اللعن لا يكون إلا على المحرم.

* * * *

* وسأل آخر هل اتصال البنيان فى القرية شرط فى صحة الجمعة؟ فكان الجواب ما يأتى:

ليس فى اشتراط اتصال بنيان القرية حديث، إنما مرجع المسألة للنظر، وقد أفتى بعض الفقهاء باشتراط الاتصال، ولكن الإمام الآبى تلميذ ابن عرفة بعدما ذكر هذه الفتوى فى شرحه على صحيح مسلم قال: والأظهر أنهم إن كانوا من القرب بحيث يرتفق بعضهم ببعض فى ضرورياتهم والدفع عن أنفسهم جمعوا. لأنهم - وهم كذلك - بحكم القرية المتصلة البنيان. وما قاله الآبى نقله الحطاب وسلمه، وزاده تأييدا بما نقله من جزم صاحب الطراز بعدم اشتراط الاتصال، واستدلاله بأن بعض بيوت القرية قد يخرب فيحصل الانفصال ومع ذلك لا يضر ما لم يبعد ما بين البيوت، ولما كان المقصود من القرية هى التوافق والتعاون، فإذا حصلا فأهل تلك البيوت قرية وإن انفصلت بيوتها فهى فى حكم الاتصال، فالقرية الواقعة فى السؤال إذا كانت بيوتها على هذا الوجه فإنها تجمع ولا يضرها الانفصال.

* * *

---

(١) كذا فى الأصل، وصوابه: والمتشبهين.

* وسأل أحد أهالى بلدة (ميشلى) عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسوية هل يجوز دفنهم فى مقابر المسلمين، فكان الجواب منه حسما بما يلى:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وآله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فابن (المطورنى) إذا كان مكلفا ولم يعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه - فهو مثل أبيه، لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين، وإن كان صغيرا فهو مسلم على فطرة الإسلام يدفن معنا ونصلى عليه.

قاله وكتبه خادم العلم وأهله

عبد الحميد بن باديس

الجزائر ٢٥ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ(١).

ابن باديس وطريقته فى التفسير

حرص ابن باديس كل الحرص على أن يكون تفسيره لآيات الذكر الحكيم واضحا كل الوضوح، يشرح ألفاظ الآية، ثم يعرج إلى معناها العام مبينا الجوانب الفقهية فيها مطبقا ما جاء بها من أحكام على السلوك العام للمسلم، وكل آية من الآيات لها تذوق إيمانى، وتجليات إلهية تأخذ بيد المسلم إلى الطريق السوىّ، طريق الهدى والرشاد طريق الله عز فى علاه.

يظهر هذا واضحا جليا فى النماذج التالية من تفسيره المعروف باسم «تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

من سورة الفرقان:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

(١) البصائر: السنة الثانية العدد ٧٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦ هـ - ٢٠ أغسطس ١٩٣٧م.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ١، ٢].

﴿تبارك﴾ مادة (ب ر ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت، منها بورك الإبل، استناختها، والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء. والبراكاء الثبات فى الحرب، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة، ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابت الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت، وتبارك من البركة فمعناه تزايد خيره.

والله تعالى له الكمال، ومنه الإنعام، فتبارك: أى تزايد كماله وإنعامه، فلا تحصى إنعاماته، ولا تحد كمالاته.

وثبوت الكمال ينافى وينفى ضده، فيقتضى التنزه عن النقص.

فانتظم اللفظ ثلاثة معان:

التنزه عن النقص، والاتصاف بالكمال، والإفاضة للإنعام. (فتبارك: تقدس وتعاظم) الفعل الأول مفيد للأول والفعل الثانى مفيد للثانى والثالث.

﴿نَزَّل﴾مادة (ن ز ل) ترجع إلى معنى الهبوط من عل، والحلول فى أسفل.

ونزَّل المضاعف أبلغ فى المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا، لأنه نزله مفرقا على نيف وعشرين سنة. وقد يفيد القوة فى نزول واحد كما فى قوله تعالى: ﴿لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان: ٣٢]، لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل.

﴿الفرقان﴾ أصله مصدر فرق بمعنى فصل. وهو أبلغ فى الدلالة عن المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون، كما فى القرآن أبلغ من القراءة لذلك.

وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم.

﴿نذيرا﴾ مادة (ن ذ ر) كلها ترجع إلى الإعلام والتحتيم، فمنها: نذر على نفسه الصوم: أوجبه وحتمه، وأعلم به. ونذر بالعدو ـ كفرح ـ عليم به. وأنذره: أعلمه، ولا يستعمل إلا فى إبلاغ ما فيه تخويف، فهو إعلام بتأكيد وتحتيم. ونذير هنا بمعنى منذر من فعيل بمعنى مفعل.

﴿الذى نزل﴾ عرف المسند إليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذى إليه سيق الكلام.

وقد ثبت بالقرآن الكريم أنه كان يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً.

بان - والحمد لله - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق فى الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما.

والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه، والقوة والإخلاص فى الصدع به والثبات عليه.

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة إبراهيم الآية ٢٧].

الغرض بيان كمالات الله تعالى وإنعاماته، وتنزيل الفرقان منها، فهو من أعظم نعم الله على البشر، ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته.

﴿عبده﴾ إضافة تشريف لأنه أكمل العباد.

المعنـــى:

تقدس وتعاظم الرب الذى نزل الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس، مفصلاً آيات على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - أكمل عباده، ليكون بذلك الكتاب - لجميع الإنس والجن - منذراً لهم يعلمهم بعذابه، ويخوفهم بشديد عقابه إن لم يعبدوه وحده، ويخلعوا غيره من آلهتم الباطلة، ويدخلوا فى الدين الذى جاءهم به وهم الإسلام.

توحيـــد:

هذا الفعل وهو «تبارك» لا يسند إلا إلى الله تعالى، ذلك لأن العظمة الحقيقية بالكمال والإنعام والتقديس بالتنزه التام ليسا إلا له، وما من كامل من مخلوقته إلا وهو - جل جلاله - الذى كمله. وما من منعم عليه منهم إلا وهو تعالى الذى أنعم عليه، وما من زكى منهم إلا وهو - سبحانه - الذى زكاه.

سلــوك:

هذا الرب الكامل المكمل، المنعـم المتـفـضل القـدوس، هو الـذى أنزل هـذا الفرقان. فـإذا أردت أن ترقـى فـى درجـات الكمـال، وتظفـر بأنواع الإنعـام، وتزكى نفسك الزكاء التام ـ فعليك بهدى هذا الفرقان، فـهو بساط القدس، ومعـراج الكمال، ومائدة الإكرام.

وقد سئلت عـائشة ـ رضى الله تعالى عنهـا ـ عن خلق النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: «كان خلقه القرآن[1]»[2].

فقــه واستنباط:

لما سمى الله كتابه الفرقان، علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل، وأهل هذا وذاك. فـهو الحكم العدل، والقول الفـصل بين كل متنازعين يدعى كل منهمـا أنه على الحق، فيما هو عليه من عقد، أو قول، أو عمل.

فمـا تقابل حق وباطل، ومـا تعـالجت حجة وشبهة إلا وفى هذا الكتـاب الحكيم مـا يفرق ما بينهـما[3]. وإنما يتفاوت الناس فى إدراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة وعلم، وصدق بصيرة، وحسن إخلاص. فعلينا ـ إذن ـ أن يكون أول فـزعنا فى الفرق والفصل إليه. وأن يكون أول جهدنا فى استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه.

فـإذا حكَم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له، وفـارقنا مـا حكم عليه. فـالله سمـاه الفرقان، لنعلم أنه فـارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقـان، إلا بالعلم والعمل.

ولما جعل ـ تعالى ـ غـاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيرًا، اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالقرآن، لتقوم الحجة، وتتم الحكمة، وتحصل الفائدة وتشمل النعمة.

---

(١) كان خلقه القرآن. معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته.

(٢) جزء من حديث روى فى الصحاح مطولاً ومختصراً. رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ـ حديث ١٣٩. وأبو داود فى التطوع باب ٢٦. والترمذى فى البر باب ٦٩. والنسائى فى قيام الليل باب ٢. وابن ماجة فى الأحكام باب ١٤. والدارمى فى الصلاة باب ١٦٥. وأحمد فى المسند (٦/ ٥٤، ٩١، ١١١، ١٥٣، ١٨٨، ٢١٦).

(٣) قال تعالى: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شيء﴾. سورة الأنعام، الآية ٣٨.

وقد صرح بهذا فى قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف : ٢].

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩].

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل : ٩١، ٩٢].

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥].

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦].

فعلينا ـ إذن ـ أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية ، فنستخرج أصولها وفنونها من آياته ، وهذا حظ العلم ، وأن يكون اهتداؤنا فى أنفسنا وهدينا لغيرنا به ، وهذا حظ العمل ، وهما ركنا الإيمان .

تطبيق وتحاكم:

فى العالم الإسلامى كله اليوم طائفتان من المؤمنين[1]، يتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، ولكل منهما ـ فى سلوكها للقيام بتلك الخطة ـ سبيل ، وكل منهما تدعى أنها على الصواب ، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد .

فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما ، وننظر : كيف يفرق ما بينهما ومن هى المصيبة أو المخطئة . وفى ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه .

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل ، لخطر الخطة التى تنازعا عليها ، وعظيم النفع والضرر الذى يحصل من خطأ المخطىء ، وصواب المصيب بها ، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن ، فتنازعهما عليها تنازع عليه ، فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه .

---

(١) يشير إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وما يشبهها ، وإلى الطرقية المبتدعة (عن حاشية المطبوع ص ٢٤٩).

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة فى قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى:

يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا قليلاً.

ولهم عليهم فى أموالهم حق فى أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية:

يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه..

ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة فى الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

ولا يطلبون عليهم فى ذلك أجراً.

والله تعالى يقول فى الحال الأول: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ [ق: ٤٥] وغيرها من الآيات المتقدمة فى هذا المجلس.

ويقول ـ تعالى ـ فى الحال الثانى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٥٧].

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

ويقول فى آية صريحة تامة فى بيان من يجب أن يتبع من الدعاة: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١].

ومن هم المهتدون؟ هم المتبعون للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه فى طريق دعوته الخلق إلى الله.

* * *

من سورة النحل:

(كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها)

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

سبيل الرب جل جلاله:

شرع الله لعباده ـ بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله ـ ما فيه استنارة عقولهم، وزكاة نفوسهم، واستقامة أعمالهم.

وسماه سبيلاً ليلتزموه فى جميع مراحل سيرهم فى هذه الحياة، ليفضى بهم إلى الغاية المقصودة، وهى السعادة الأبدية فى الحياة الأخرى[1].

وأضافة إلى نفسه، ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

وذكر من أسمائه الرب، ليعلموا أن الرب الذى خلقهم وصورهم[2]، ولطف بهم فى جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم ـ هو الذى وضع لهم هذه السبيل لطفًا منه بهم، وإحسانا إليهم، لينهجوها فى مراحل حياتهم، فكما كان رحيمًا بهم فى خلقه، كان رحيمًا بهم فى شرعه، فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها ومع شكر له وشوق إليه.

وأمر نبيه ـ عليه السلام ـ أن يدعو الناس أجمعين ـ وحذف معمول «ادع» لإفادة العموم ـ إلى هذه السبيل، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

اهتـــداء:

أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو إلى سبيل ربه، وهو الأمين المعصوم فما ترك شيئًا من سبيل ربه إلا دعا إليه، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فليس من سبيل الرب جل جلاله، فاهتدينا بهذا ـ وأمثاله كثير ـ إلى الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ودعاة الله ودعاة الشيطان.

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الأدب باب ٧٦، والدارمى فى الاستئذان باب ٦٣، وأحمد فى المسند (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨) من طريق حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان».

(٢) تحرفت فى الأصل المطبوع إلى «وطورهم».

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الله، يدعو إلى الحق والهدى. ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال.

اقتـــــداء:

فالمسلم المتبع للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يألو جهدًا فى الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع، تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.

أركـان الدعـوة:

١ ـ الداعى، وهو النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم.
٢ ـ المدعو، وهم جميع الناس.
٣ ـ المدعو إليه، وهو سبيل الرب جل جلاله. والدعوة إلى سبيله الموصل إليه دعوة إليه، فالمدعو إليه فى الحقيقة هو الله تعالى.
٤ ـ البيان عن الدعوة.

وتجىء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعى، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو إليه، ومنها ما هو حديث وبيان عن بيان الدعوة.

وتتضمن كل آية جاءت فى واحد الذكر أوجه الإشارة للثلاثة الأخرى، وهذه الآية الكريمة جاءت فى بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدى؟ وكيف يدافع عنها؟ مع ذكر الداعى والمدعو إليه، فقال تعالى: ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

(الحكمة) هى العلم الصحيح الثابت، المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم. فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة فى النفس رسوخًا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال ـ حكمة، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة التى أثمرتها تلك العقائد ـ حكمة، والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة ـ وهى علم وعمل نفسى ـ حكمة، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح ـ الجامع حكمة، تسمية للدال باسم المدلول.

استدلال واستنتاج:

في سورة الإسراء ثماني عشرة آية، جمعت أصول الهداية، من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الآية: ٢٢] إلى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة.

وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء الآية: ٣٩].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من الشعر حكمة»[(١)] وذلك لأن من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق، أو خلق كريم، أو عمل صالح، أو علم وتجربة، كشعر أمية بن أبي الصلت، الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «كاد أن يسلم»[(٢)].

وككلمة لبيد رضي الله عنه: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل[(٣)]» التي قال فيها ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «أصدق كلمة قالها الشاعر»[(٤)].

---

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب، البخاري في الأدب باب ٩٠، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٥، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٦و ٥/ ١٢٥). وأخرجه من حديث ابن عباس الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٥، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٦. وأخرجه من حديث عبد الله بن مسعود الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٤.

(٢) رواه من حديث أبي هريرة، البخاري في الأدب باب ٩٠. ومسلم في الشعر حديث ١ و٣و٤. وابن ماجة في الأدب باب ٤١. وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٤٧٠). ولفظ الحديث ـ كما عند البخاري ـ «وأصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(٣) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة وعجزه:
وكل نعيم لا محالة زائل. وهو في ديوانه (ص ٢٥٦) وجواهر الأدب (ص ٣٨٢) وخزانة الأدب (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧) والدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية (١/ ٧١) وديوان المعاني (١/ ١١٨) وسمط اللآلي (٢٥٣) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/ ١١) وشرح التصريح على التوضيح (١/ ٢٩) وشرح شذور الذهب (ص ٣٣٩) وشرح شواهد المغني (١/ ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٣٩٢) وشرح المفصل (٢/ ٧٨) والعقد الفريد (٥/ ٢٧٣) ولسان العرب (٥/ ٣٥١ـ مادة رجز) والمقاصد النحوية (١/ ٥، ٧، ٢٩١) ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ١٣٣) وهمع الهوامع (١/ ٣) وأسرار العربية (ص ٢١١) وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/ ٢٨٩) ورصف المباني في شرح حروف المعاني (ص/ ٢٦٩) وشرح عمدة الحافظ (ص ٢٦٣) وشرح قطر الندى (ص ٢٤٨) واللمع في العربية (ص ١٥٤).

(٤) راجع تخريجه في الحاشية (١).

فالحكمة التى أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها، هى البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق ببراهينها، والأخلاق الكريمة بمحاسنها، ومقابح أضدادها، والأعمال الصالحة: من أعمال القلب واللسان والجوارح بمنافعها ومضار خلافها.

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها، بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها، حيثما كانت من آياته. فآيات القرآن وأحاديثه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى بيان هذه الأشياء البيان المذكور ـ هما الحكمة التى كان يدعو إلى سبيل ربه بها.

وتلك الأشياء كلها هى أيضًا حكمة وهى التى كان يعلمها كما فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة البقرة الآية ١٢٩]. فصلى الله عليه وآله وسلم من داع إلى الحكمة بالحكمة، ومعلم للحكمة بالحكمة.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة: وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدى بأساليب القرآن والسنة فى دعوتنا، فيما يحصل الفهم واليقين، والفقه فى الدين والرغبة فى العمل والدوام عليه.

وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود فى فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور فى العمل.

فحق على أهل الدعوة إلى الله ـ وخصوصًا المعلمين ـ أن يقاوموا ما بينا من جهل وجمود وإعراض وفتور، بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها.

وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية ـ والحمد لله ـ وأخذ أثرها ـ بفضل الله ـ يظهر فى الناس بقدر الأخذ بها، ويوشك أن تتجدد بذلك فى المسلمين حياة إن شاء الله[1].

---

(١) يشير الإمام إلى دعوة جمعية العلماء المسلمين التى أنشأها وقامت بواجب الدعوة إلى الله، وكان ابن باديس رئيسها حتى لحق بربه ١٩٤٠ م. (حاشية المطبوع: ص ٥٣٦).

الموعظة الحسنة:

الوعظ والموعظة، الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع - إذا اتعظ وقبل الوعظ، وأثر فيه - على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقد يطلق على نفس الأمر والنهى.

الاستدلال:

ففى حديث العرباض[1] الذى رواه الترمذى وغيره:

«وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت[2] منها القلوب، وذرفت[3] منها العيون»[4] فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر فى قلوبهم، فهذه حقيقة الموعظة.

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ [النساء: ٦٦] أى يؤمرون به. وقال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ [النور: ١٧] أى ينهاكم.

فهذا من إطلاق الوعظ على الأمر والنهى، لأن شأن الأمر والنهى أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب.

بماذا تكون الموعظة:

يكون الوعظ بذكر أيام الله فى الأمم الخالية، وباليوم الآخر، وما يتقدمه، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم، ومصيرهم إلى الجنة والنار، وما فى الجنة من نعيم، وما فى النار عن عذاب أليم، وبوعد الله ووعيده، وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ.

---

(١) هو أبو نجيح وأبو الحارث العرباض بن سارية السلمى الفزارى القرشى المتوفى بعد السبعين للهجرة. صحابى جليل من أهل الصفة. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب (٧/ ١٧٤) وتقريب التهذيب (٢/ ١٧) وتاريخ البخارى الكبير (٧/ ٨٥) والجرح والتعديل (٧/ ٣٩) والثقاة (٣/ ٣٢١) وأسد الغابة (٤/ ١٩) وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٧٨) والإصابة (٤/ ٤٨٢) والاستيعاب (١٢٣٨) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٩) وحلية الأولياء (٢/ ١٣) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٥، ٤/ ٢٧١).

(٢) وجلت: خافت وفزعت (المعجم الوسيط: ص ١٠١٤).

(٣) ذرف الدمع ذرفا: سال (المعجم الوسيط: ص ٣١١).

(٤) رواه الترمذى فى العلم باب ١٦. وأبو داود فى السنة باب ٥. وابن ماجة فى المقدمة باب ٦. والدارمى فى المقدمة باب ١٦. وأحمد فى المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

ويكون بغيرها، كتذكير الإنسان بأحوال نفسه، ليعامل غيره بما يحب أن يعامل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها، مثل قوله تعالى وقد نهى أنه يقال لمن ألقى السلام لست مؤمنا - ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] وقوله تعالى - وقد أمر بالعفو والصفح - ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

تفريق بالتمثيل:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] هذه حكمة. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] هذه موعظة.

ويقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩] هذه أيضا موعظة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٤]. هذه حكمة، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤]، هذه موعظة.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠-٣١] هذه حكمة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] هذه موعظة.

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة فى آيات القرآن العظيم، فتتبعها فى جميع سوره تجدها، وتدبرها تقع منها على علوم جمة، وأسرار غريزة.

حسن الموعظة:

الموعظة التى تحصل المقصود منها، من ترقيق القلوب، للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة هى الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها، بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه فى النفوس، فعذبت فى الأسماع، واستقرت فى القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثرت الرغبة والرهبة، وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، ونادت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقفها القلب من القلب، إلا نفسًا أحاطت بها الظلمة، وقلبًا عمى عليه الران(1).

عافى الله قلوب المؤمنين.

تطبيق واستدلال:

كل هذا تجده فى مواعظ القرآن، وفيما صح من مواعظ النبى، صلى الله عليه وآله وسلم وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما جاء فى الصحيح: «إذا خطب، وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش يقول صبحكم، ومساكم، وكان يقصر خطبه فى بلاغة وإيجاز»(2).

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها إلى أن من الموعظة ما هو حسن، وهو الذى تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب.

وبينت مواعظ القرآن، ومواعظ النبى ـ صلى الله وعليه وآله وسلم ـ ذلك الحسن.

فعلينا أن نلتزمه، لأنه هو الذى تبلغ به الموعظة غايتها، وتثمر بإذن الله ثمرتها.

وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد ألفاظها، أو يقلبها إلى ضد المقصود منها، كذكر الآثار الواهية التى فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال.

---

(1) الران: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ يعلو الشيء الجلى كالسيف والمرآة ونحوهما، والدنس، ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب (المعجم الوسيط: ص ٣٨٦).

(2) لفظ الحديث بتمامه كما رواه مسلم فى الجمعة حديث رقم ٤٣: عن جابر بن عبد الله قال. كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، ومن ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلىّ وعلىّ». ورواه أيضًا النسائى فى العيدين باب ٢٢، وابن ماجة فى المقدمة باب ٧.

تحذيــــــر:

أكثر الخطباء فى الجمعات اليوم فى قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة، مسجعة طويلة، من ظلمات الماضى، لا يراعى فيها شىء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه الحالة بدعية فى شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سد بها أهلها بابًا عظيمًا من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام.

فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيبًا فى الناس؛ وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون.

ورحم الله أبا الحسن ـ كرم الله وجهه ـ فقد قال: «الفقيه كل الفقيه، من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكره، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه».

الجدال بالتى هى أحسن:

لابد أن يجد داعية الحق معارضة من دعاة الباطل، وأن يلقى منهم مشاغبة بالتشبهات، واستطالة بالأذى والسفاهة، فيضطر إلى رد باطلهم وإبطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذى أمر به صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَجَادِلْهُم...﴾ (1).

ولما كان أهل الباطل لا يجدون فى تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون فى مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها ويهربون إليها، لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم فى جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك فى مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة فى الجدال هى التى هى أحسن من غيرها، فى لفظها ومعناها،

---

(1) الآية 125 من سورة النحل: ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده.

وهذه هى الطريقة التى أمر الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالجدال بها فى قوله: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآيةالكريمة إلى الطريقة المحمودة المشروعة فى الجدال.

وفى آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام، فإنه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الإسلام إلا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلاً من أصول أحكامه وأصول آدابه إلا بينه واحتج له وذكر حكمته وثمرته، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل إلا ردها بالطريقة الحسنة التى أمر بها، وجاءت السنة النبوية الكريمة، والسيرة المحمدية الشريفة، مطبقة لذلك ومنفذة له.

فالكتاب والسنة، فيهما البيان الكافى الشافى للجدال بالتى هى أحسن، كما فيهما البيان الشافى الكافى للحكمة والموعظة الحسنة.

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد فى تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، وندأب على العمل بما نجده، والتحلى به، والالتزام به، من هذه الأصول الثلاثة فى الدعوة والدفاع عنها.

أحكام وتنزيل:

أمر الله بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به، فكما يجب لسبيل الرب جل جلاله أن تعرف بالبيان والحكمة، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة، كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتى هى أحسن، إذ لا قيام لشىء من الحق إلا بهذه الثلاث.

غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا فى منزلة واحدة فى القصد والدوام. فإن المقصود بالذات هو الدعوة، وأما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة، والصاد بالباطل عن سبيل الله، فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه. ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على

كل حال، وكان الجدال مذمومًا فى بعض الأحوال، وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذ شاغلاً عن الدعوة ومؤديا[1] - فى الأكثر - إلى الفساد والفتنة. فإذا كان جدالاً لمجرد الغلبة والظهور، فهو شر كله. وأشد شرّاً منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفى هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[2] ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

تحذيـــــر:

المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شىء جدلاً. غير أن التربية الدينية هى التى تضبط خلقه، وتقوّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب فى الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها فى كل شىء، ولأدنى شىء، ولا يبالى بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأى وجه كان، وهذا هو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[3].

ومن ضبط نفسه وراقب ربه، لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق وبالتى هى أحسن.

علينا الدعوة والجدال، وإلى الله الهدى والضلال، والمجازاة على الأعمال: الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة، والجدال على وجهه عام مثلها.

---

(١) تحرفت فى الأصل المطبوع إلى «ومؤيدًا» بتقديم الياء على الدال.

(٢) رواه من حديث أبى أمامة الباهلى الترمذى فى تفسير سورة ٤٣، وابن ماجة فى المقدمة باب ٧، وأحمد فى المسند (٥/ ٢٥٢، ٢٥٦).

(٣) أخرجه من حديث عائشة - رضى الله عنها - البخارى فى تفسير سورة البقرة باب ٣٧، والمظالم باب ١٥، والأحكام باب ٣٤، ومسلم فى العلم حديث٥. والترمذى فى تفسير سورة البقرة باب ٢٣. والنسائى القضاة باب ٣٤. وأحمد فى المسند (٦/ ٥٥، ٦٣، ٢٠٥). والألد: شديد الخصومة، ومأخوذ من لديدى الوادى وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ فى جانب آخر. والخصم: الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل فى رفع حق أو إثبات باطل.

ثم يكون حظ كل أحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه وتكون مجازاته على ذلك للخالق، الذى هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا فى سبيله.

والعدل الحقيقى التام فى الجزاء إنما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك إلا الله، فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه، ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

ثمرة العلم بهذا :

إن الداعى يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله ، وإنما عليه البلاغ. وأنه يصبر على مايلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى ، دون أن يجازى بالمثل، أو يفتر فى دعوته من أذاه ، لعلمه بأن الذى يجازى إنما هو الله .

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر ، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر ، ومن جحد وكفر ، غير منتظرين إلا جزاءه ، ولا متكلين إلا عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

من سورة يوسف :

سبيل السعادة والنجاة

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨].

تمهيد :

خلق الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الناس ، وجعله قدوتهم ، وفرض عليهم اتباعه والائتساء به [١]، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب، ولا وصول

---

(١) حيث قال جل وعلا : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

لهم إلى السعادة فى دنياهم وأخراهم، ومغفرة خالقهم ورضوانه ـ إلا باقتفاء آثاره والسير فى سبيله.

فلهذا أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يبين سبيله بيانا عاما للناس، لتتضح المحجة للمهتدين، وتقوم الحجة على الهالكين.

أمره أن يبينها البيان الذى يصيرها مشاهدة بالعيان، ويشير إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات، فقال له: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾.

ثم بَيَّنَ سبيله بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى، والبراءة من المشركين، فقال: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

الدعوة إلى الله:

فالنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من يوم بعثه الله إلى آخر لحظة من حياته، كان يدعو الناس كلهم إلى الله، بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه فى سائر مشاهده.

وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها، كما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»[1]، فكانت مشاهدة معينة، كما أشير إليها فى الآية إشارة المعين المشاهد.

كان يدعو إلى دين الله، ويبين هو ذلك الدين ويمثله: يدعو إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة، فكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كله دعوة إلى الله. فما دعا إلى نفسه، فقد مات ودرعه مرهونة فى دين.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (المقدمة، باب ١ حديث ٥) عن أبى الدرداء قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال «آلفقر تخافون؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه. وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

وقوله: «البيضاء» أى على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل، لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السراء والضراء.

وما دعا إلى قومه، فقد كان يقول : « لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله »(١) .

كان يدعو الناس كلهم، إذ هو رسول الله إلى الناس كلهم، فكتب الكتب وأرسل الرسل، فبلغت دعوته إلى الأمم وملوك الأمم.

كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين، يدعو أولئك إلى الدخول فى دين الله ويدعو هؤلاء إلى القيام بدين الله، فلم ينقطع يوما عن الإنذار والتبشير والوعظ والتذكير.

كان يدعو إلى الله على بينة وحجة يحصل بها الإدراك التام للعقل، حتى يصير الأمر المدرك واضحا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر، فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفى كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله فى حياته كلها، وفى جميع أحواله.

وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان، مشتملة على الحق والبرهان، فكان يستشهد بالعقل، ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام الله فى الأمم الخالية، و ما استفاض من أخبارها، وبقى من آثارها من أنباء الأولين، وما يمر الناس عليه ﴿ مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ـ ١٣٨].

على كل مسلم أن يكون داعيا إلى الله :

لقد كان فى بيان أن الدعوة إلى الله هى سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما يفيد أن على أتباعه ـ وهو قدوتهم ولهم فيه الأسوة الحسنة ـ أن تكون الدعوة إلى الله سبيلهم.

ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه، وأن اتباعهم له لا يتم إلا به ـ جاء التصريح بذلك هكذا :

﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٤١١) من حديث أبى نضرة عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالمسلمون أفرادا وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله، وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون دعوتهم وفقا لدعوته، وتبعا لها.

ماهية الدعوة :

١ ـ فمن الدعوة إلى الله : دروس العلوم كلها، مما يفقه فى دين الله، ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته، ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته. فالفقيه الذى يبين حكم الله وحكمته، داع إلى الله، والطبيب المشرح الذى يبيِّن دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كل مبين فى كل علم وعمل.

٢ ـ ومن الدعوة إلى الله : بيان حجج الإسلام، ودفع الشبه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه، وبين مزعزعى العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

٣ ـ ومن الدعوة إلى الله : مجالس الوعظ والتذكير، لتعريف المسلمين بدينهم، وتربيتهم فى عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم فيه، ببيان ما فيها من خير وسعادة لهم. وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هى سبب كل شقاوة وشر لحقهم. وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية أفرادها وأممها إلا بيَّنه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى به البشرية أفرادها وأممها إلا بيَّنه لهم ونهاهم عنه. وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم، وبقاياه الباقية لديهم، ومظاهره القائمة بهم، لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية، ولتلاشت أشلاؤهم ـ وهم الأموات ـ فى الأمم الحية.

٤ ـ ومن الدعوة إلى الله : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة : فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، وهو أضعف الإيمان[1]، وأقل الأعمال فى هذا المقام.

---

(١) وفيه الحديث عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم فى الإيمان حديث ٧٨. وأبو داود فى الصلاة باب ٢٤٢، والملاحم باب ١٧، والترمذى فى الفتن باب ١١. وابن ماجة فى الإقامة باب ١٥٥، والفتن باب ٢٠، والنسائى فى الإيمان باب ١٧. وأحمد فى المسند (٣/ ١٠، ٢٠، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٦٢).

٥ ـ ومن الدعوة إلى الله : ظهور المسلمين ـ أفرادا وجماعات ـ بما فى دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة وعلم وعمل وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغب للأجانب فى الإسلام، كما كان ضده أعظم منفر لهم عنه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم، إلا أن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال، كما يدعون بالقول، ومازالت الأعمال عياراً على الأقوال.

٦ ـ ومن الدعوة إلى الله : بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة، ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عواصم الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم. وكل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله فى سنة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسنة السلف الصالح من بعده.

فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه فى كل وجه من وجوهه، وليعلم أن الدعوة إلى الله على بصيرة هى سبيل نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسبيل إخوانه الأنبياء صلوات الله عليهم من قبله.

فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف ـ مقام خلافة النبوة ـ شيئا من حظه، وإذا كان هذا المقام ثابتا لكل مسلم ومسلمة، وحقا القيام به ـ بقدر الاستطاعة ـ على كل مسلم ومسلمة ـ فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق، وهم المسئولون عنه قبل جميع الناس.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم. وإذا عادوا إلى القيام به ـ وقد عادوا والحمد لله ـ أوشك ـ إن شاء الله ـ أن ينجلى عن المسلمين مصابهم.

تفرقـــة :

ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله يكون صادقا فى دعواه، فلابد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين. والفرق بينهما ـ مستفاد من الآية ـ بوجهين :

الأول : أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، فلايستطيع أن ينسى نفسه فى أقواله وأعماله.

وهذا الفرق من قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾.

الثانـــى : أن الصـادق يعتمـد على الحجة والبرهان، فلا تجد فى كلامه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعـاء مجـرداً، ولا تقـع من سلوكـه فى دعوتـه علـى التواء ولا تناقض ولا اضطراب.

وأما الكاذب فإنه بخلافه : فإن يلقى دعاويه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه فى يده، ولا يزال لذلك فى حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعدا عن الصراط المستقيم.

وهذا الفرق من قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

مباحث لفظية :

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يتعلق بـ ﴿أَدْعُو﴾، واختيرت ﴿عَلَى﴾ لتدل على تمام التمكن، و﴿أَنَا﴾ تأكيد للضمير المستتر فى ﴿أَدْعُو﴾، ونكتته الإعلان بنفسه فى مقام الدعوة، وشأن الداعى على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستسر بها، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ على اتباعه كماتتصل بدعوته.

وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية والكلام تصوير للواقع.

﴿مَنِ﴾ تفيد العموم لكل تابع، وأكملهم فى الاتباع أكملهم فى الدعوة، لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون.

تنزيه الله تعالى :

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة فى الفطرة، ويكاد لا تكون لمنكريه ـ عناداً ـ نسبة عددية بين البشر.

ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لايجوز عليه، ولا يليق بجلاله : من الصاحبة والولد، والمادة والصورة، والحلول، والشريك فى التصرف فى الكون، والشريك فى التوجه والضراعة إليه، والسؤال منه والاتكال عليه. فأرسل الله الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله.

وكان من سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

فهو يدعوهم إلى الله الذى قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته فى جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشىء من مخلوقاته لا فى ذاته، ولا فى أسمائه، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله.

وهذا التنزيه - وإن كان داخلا فى الدعوة إلى الله - فإنه خصص بالذكر، لعظم شأنه، فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية.

فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق والمسلمون المتبعون لنبيهم - صلى الله عليه وآله وسلم - فى الدعوة إلى الله على بصيرة، متبعون له فى هذا التنزيه : عقداً، وقولاً، وعملاً، وإعلانا، ودعوة.

مباحث لفظية:

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره أسبح أى أنزه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَدْعُو﴾ فهى من بيان القبيل.

البراءة من المشركين :

الأمة التى بعث منها النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - وهى أول أمة دعاها إلى الله، هى الأمة العربية، وهى أمة كانت مشركة تعرف أن الله خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها؛ تزعم أنها تقربها إلى الله، وتتوسط لها لديه!!

فكان النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - كما يدعو إلى الله وينزهه، يعلن براءته من المشركين وأنه ليس منهم: براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم. فهو مباين لهم فى العقد، والقول والعمل مباينة الضد للضد، فكما باين التوحيد الشرك باين هو المشركين وذلك معنى قوله : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه البراءة والمباينة - وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه - فإنها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مباينة المشركين والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه.

فى جميع مظاهر شركههم، حتى فى صورة القول كما «شاء الله وشاء فلان» . فلا يقال: «وشاء فلان» كما جاء فى حديث بيناه فى جزء من الأجزاء الماضية .

أو فى صورة الفعل: كأن يسوق بقرة أو شاة مثلا إلى ضريح من الأضرحة، ليذبحها عنده، فإنه ضلال كما قاله «الشيخ الدردير فى باب النذر» .

فضلا عن عقائدهم : كاعتقاد أن هناك ديوانا من عباد الله يتصرف فى ملك الله وأن المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو الله !!

لتأكيد أمر المباينة للمشركين فى هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره وجليه وخفيه .

والمباينة والتبرى لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة إلى الله وتنزيهه، وإنما خصص المشركين لما تقدم، ولأن الشرك هوشرك الكفر وأقبحه .

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة فى الدعوة إلى الله وتنزيهه، فالمسلمون المتبعون لنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كمايدعون إلى الله على بصيرة وينزهونه، يباينون المشركين فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ويطرحون الشرك بجميع وجوهه ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد لله رب العالمين .

وهذا هو تفسير ابن باديس لآخر سورة من سور المصحف الشريف «سورة الناس»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس] .

تمهيد :

قال تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التى قبلها (هى المعوذتان)، وعلمنا أنها تسمية نبوية، وقد جرت الصفة مجرى الاسم لهما .

أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو (الناس) كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى (الفلق) [1]. والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما فى الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفى السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام، ومن ثلاثة أنواع[2]، منه ذكرنا الحكمة فى تخصيصها بالذكر، وفى هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب فى شرور كثيرة.

النفوس الشريرة :

والمناسبة القريبة بين السورتين هى أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يصدر عنه الضرر ويعمله.

٢ ـ قسم لا يريد الخير فيسعى فى سلبه وانتزاعه، وهو شر من الأول.

٣ ـ قسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح، ومالك هديها وهو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله [3].

فهو يحسن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحى على وجه النصح وإرادة الخير. ويزين للإنسان كل مايرد به من القبائح، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قريبا منه متصلا بهواه، وهذا القسم الأخير هو الذى يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح، حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك.

ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرا وأكثر شرا وأخسر عاقبة ـ خصص التعوذ منه سورة كاملة.

﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ هو مربيهم ومعطيهم فى كل مرتبة من مراتب الوجود وما يحتاجون إليه لحفظها وهاديهم لاستعمال مامن به عليهم فيما ينفعهم : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠].

---

(١) كتاب «إحياء علوم الدين».

(٢) هى : شر ماخلق، وشر الغاسق إذا وقب، وشر النفاثات فى العقد.

(٣) ألا وهو القلب، كما جاء فى الحديث من طريق النعمان بن بشير عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : «. . . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». رواه البخارى فى الإيمان باب ٣٩، ومسلم فى المساقاة حديث ١٠٧، وابن ماجة فى الفتن باب ١٤، والدارمى فى البيوع باب ١.

وأصله من ربه يربه ربًا إذا قام على نشأته وتعهده فى جميع أطواره إلى التمام والكمال، ولفظه لفظ المصدر ولكن معناه معنى اسم الفاعل، كالعدل يراد به العادل.

و﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ هو الذى يملك أمر موتهم وحياتهم، ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية.

و﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ هو الذى يدينون به بالعبادة والعبودية.

وبلاغة الترتيب، إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنسانى.

فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية.

والثانى: طور القوة والتدبير، وهما من مظاهر الملك.

والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهمامن مظاهر الألوهية.

المستعاذ منه:

المستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهى أشرف علائقه به وأقوى صلاته.

وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها، وبما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة.

مثل قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أو لذلك الشأن الجارى مجرى الحوار بين إبليس وبين خالقه، كقوله تعالى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وكقوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩].

فهو جاهد فى أن يبعد الناس عن الله ، بإفساد العقيدة الصحيحة فيه أو بالصرف عن شرع الله ، أو بالحمل على عبادة غيره ، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التى يريد الشيطان أن يقطعها .

و(الرب) رب الناس وغيرهم ، بل رب العالمين . وإنما خص الناس بالذكر :

١ - لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته ، ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه ، ولأن عالم التكليف أشرف ؛ فإليهم يوجه الخطاب وإليهم يساق التحذير . وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما ، فأمر الله بالاستعاذة منها هو تصليح إلهى لبنى آدم لتثبيت سنة التعمير التى هى حكمة الله من وجودهم .

٢ - ونكتة أخرى فى تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين ، وهى أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال .

وقد ضلوا بالفعل فى ربوبية الله وفى ألوهيته : ضلوا فى الربوبية باتخاذ المشرعين ليشرعوا لهم فى الدين مالم يأذن الله ويصدوهم بذلك عما شرع الله ، وضلوا فى الألوهية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء .

واختير لفظ الناس ، من بين الألفاظ المشاركة له فى الدلالة كالبشر والبرية ، لأنه ينوس ويضطرب وينساق ، وهى صفات يلزمها التوجه ، ويسهل التوجيه ، فلا غنى لصاحبها عن توفيق الله للوجهة الصالحة ، والتسديد فيها ، ما دام لايملك لنفسه ذلك ، ومادام محاسبا عليه ، ومادامت هناك قوة مسلطة تنزع به إلى الشر .

ففى تخصيص الناس بالذكر تنبيه إلى أنهم أحوج المربوبين إلى تأييد الله وأحقهم بطلب ذلك منه ، وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد .

ولو تفقه الناس فى معنى اسمهم واشتقاقه ، لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ولأيقنوا أنه لابد لهم من رب يربيهم ويحميهم ، ومالك يدبر أمورهم ، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جنة من استعباد الأقوياء .

ويجوز - إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه فى حمل الألفاظ التى تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها - أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس ، وهو الأماثل والأخيار منهم الجامعون لمعانى الإنسانية الفاضلة ، وهذا المعنى تعرفه العرب : فإنهم كثيرا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد ، أو الأفراد الكاملين فى

حقيقته، وإن كان هذا من المجاز فى كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣].

نكتة الإعادة والإظهار للفظ الناس توضيح المعنى، وإلفات النفس إليه، وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربا هو مالكهم وإلههم.

من شر الوسواس:

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾: (الوسواس) هنا صفة الموسوس، وإن خالف المعهود فى أبنية الصفات أو هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال والزلزلة.

وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء والعرب تسمى حركة الحلى وسواسا [(١)] وهذا المعنى واضح فى المراد هنا، فإن الموسوس من الجن فى نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع ويحكم الحيلة فى ذلك، ولا يرمى رميته إلا فى الخلوات، وإن الناس ليعرفون عرفانا ضروريا من الفرق بين المصلحين والمفسدين.

إن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داوية، ويعملون أعمالهم فى وضح النهار ومحافل الخلق.

وإن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية، ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات ولكان الزمن كله ظلمات والأرض كلها مغارات.

الخناس:

﴿الْخَنَّاسِ﴾ وصف مبالغة فى الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم، ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته فى المحسوس: أنه يذهب ويجيء ويظهر ويختفى

---

(١) ومنه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

(انظر لسان العرب: ٦/ ٢٢٥ ـ مادة وسس).

إغراقا فى الكيد، وتقصيا فى التطور، حتى يبلغ مراده. فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له فى عمله كرا وفرا، وهجوما وانتهازاً، واستطرادا على التصوير الذى صوره إبليس فيما حكى الله عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]. يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها، ولنضيق عليه المسالك التى يسلكها.

كما أن وصفه بهذه الصفة بأنه ضعيف الكيد لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب: تذبه بذكر الله من ناحية فيأتيك من ناحية، ثم دواليك حتى تمل أو يمل.

وأما التهويل فى وصفه بما يأتى بعد، فهو مبالغة فى التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل فى أمره.

الوسوسة ومحلها:

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾. قال: ﴿يُوَسْوِسُ﴾ بالمضارع إشعاراً بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها، وقال: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التى كان الإنسان إنسانا بها، ومجمع المضغ [(١)] التى تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر، إنما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفرداً وجمعًا ـ فالحكم عليها بالشرح، والحرج، والضيق، والشفاء، والإخفاء، والإكناد ـ ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية، إنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه وأن الوسواس الخناس، يوجه كيده ووسوسته دائما إلى هذه القلعة التى هى الصدر، لأنها مجمع القوى.

وقال: «فى صدور الناس»، ولم يقل فى قلوب الناس، لأن القلب مجلى العقل

(١) المضغ: جمع مضغة، وهى القطعة التى تمضغ من لحم وغيره (المعجم الوسيط: ص ٨٧٥).

ومقر الإيمان، قد يكون محصنا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقبا.

من الجِنَّة والناس:

﴿الْجِنَّةِ﴾ جماعة الجن وهم خلاف الإنس، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس، لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين [1].

واستعمل لفظ الجنة فى القرآن بمعنى المصدر الذى هو الجنون، فى قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر، ذكرهما الله تعالى فى مقام الاستعاذة من شر الوسوسة، ليلتئم طرفا الكلام ويحصل التقصى الوصفى المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة إلى قسمين:

شياطين الإنس، وشياطين الجن: وذكر بعضهم يوحى إلى بعض زخرف القول، وشياطين الجن ميسر للشر، فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله، ومن شياطين الإنس بطانة السوء وقرين السوء.

القريـــن:

ورد فى الآثار أن لكل إنسان قرينا من الجن[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: ٢٥].

---

(١) كما قال تعالى فى الآية ١٤ من سورة الجن: ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾.

(٢) فى صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٦٩) عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مامنكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياى، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلايأمرنى إلا بخير» وأخرجه أيضا أحمد فى المسند(١/ ٣٨٥, ٣٩٧, ٤٠١, ٤٦٠) والدارمى فى مسنده (كتاب الرقاق، باب ٢٥).

وهو من باب توزيع الجمع على الجمع : أى لكل واحد قرين .

فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن ، ثم لايخلو من قرين أو قرناء من الإنس ، يزينون له ما بين يديه وما خلفه ، ويصدونه عن ذكر الله . فماذا يصنع؟ ماعليه إلا أن يلتجئ إلى الله ، ويستعيذ به ويتذكر ، فإنه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ ، وإنما يؤخذ إذا كان غافلا ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [فصلت : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١].

دقائق بلاغية :

ومن دقائق القرآن ولطائفه فى البلاغة ، أنه يقدم أولا الاسمين المتلازمين فى آية ، لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام ، ولايؤخر ذلك المقدم فى آية أخرى ، لسر آخر ؛ فيقدم السماء على الأرض فى مقام ، ويؤخرها عليها فى مقام آخر .

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجن فى آية الأنعام (١) ، لأن معرض الكلام فى عداوتهم للأنبياء ، وهى من الإنس أظهر ، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح .

وفى آية «الناس» قدم الجنَّة على الناس ، لأن الحديث عن الوسوسة ، وهى من شياطين الجن أخفى وأدق ، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر ؛ فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد ، فيربى عليه ويكون شرا منه لأنه بمثابة السلاح الذى يفتك به ، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنى لإنسى ، ويوسوس إليه بتنفيذها ، فتتولد منها فتن ، ويتمادى شرها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل .

وهذا النوع الإنسانى المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر ، إذا انحط وتسفل كان شرا محضا . وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى ، وأوشك أن يكون

---

(١) الآية ١١٢ : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن ﴾ .

خيرا محضا ، لولا أن العصمة لم تكتب إلا لطائفة منه ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فالإنسان إذا انحط يكون شرا من الشيطان ، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك - أعنى جنس الإنسان - ومن هذا الجنس ، كان محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - أكمل الخلق الذى ليس لمخلوق رتبة مثله فى الكمال . وأخيرا : « **سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** » [1] .

---

(١) انظر « تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير »
جمع وترتيب د/ توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان .
علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين ط دار الكتاب العلمية - بيروت . ١٩٩٥ م .

الخاتمـــة

وبعــــد..

الوفاء قليل فى البشر، وأوفى الأوفياء من يفى للأموات، لأن النسيان غالبا ما يباعد بين الأحياء وبينهم فيغمضون حقوقهم ويجحدون فضائلهم، مع أن العظماء يموتون فـلا يندثر منهـم إلا العنصـر الترابـى الـذى يرجع إلـى أصله، وتبقـى معانيهـم الحيـة فى الأرض قـوة تحرك، ورابطة تجمـع ونـورا يهدى وعطرا ينعش، وهذا هو معنى العظمة. . .

وهذا هو معنى كـون العظمة خلودا، فإن كل ما يخلف العظمـا ء من ميـراث هو أعمال نحتذيها من بعدهم، وأفكار نهتدى بها فى الحيــاة، وآثـار مشهـودة ننتفـع بها، وأمجاد نعـتز بها ونفخـر، والاعتزاز والفخـر مـن الأغذية الروحية الحافظة لبقاء الأمة.

وعبد الحميد بن باديس عظيم بأكمل ماتعطيه هذه الكلمة من معنى؛ فهو عظيم فى علمه، عظيم فى أعماله، عظيم فى بيانه وقوة حجته، عظيم فى تربيته وتثقيفه لجيل كامل عظيم فى مواقفه من المألوف الذى صيره السكوت دينا، ومن المخوف الذى صيره الخضوع إلها، عظيم فى بنائه وهدمه، عظيم فى حربه وفى سلمه، عظيم فى اعتزازه بإخوانه ووفائه لهم وعرفانه لأقدارهم.

وإذا كان من خوارق العادات فى العظماء - أنهم يبنون من الضعف قوة ويخرجون من العدم وجودا، وينشئون من الموت حياة - فكل ذلك فعله عبد الحميد بن باديس من الأمة الجزائرية [1].

---

(١) عيون البصائر - الشركة الوطنية للطبع والنشر - الجزائر - ص ٦٨٣ ومابعدها بتصرف.

لقد احتل عبدالحميد بن باديس مكانة طيبة فى النفوس، وحظى بتقدير لجهوده الكبيرة التى بذلها؛ سواء فى ميدان الإصلاح أو ميدان التربية، كما كان أحد الدعاة للقومية العربية الإسلامية. . «إن الاتحاد الإسلامى والوحدة العربية بالمعنى الروحى والمعنى الأدبى والمعنى الأخوى هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان».

يقول عنه رفيق نضاله فى الإصلاح والتربية؛ الشيخ محمد البشير الإبراهيمى إنه: «بانى النهضتين العلمية والفكرية فى الجزائر وسيف المصلحين ومربى جيلين كاملين على الهداية القرآنية، والهدى المحمدى، وعلى التفكير الصحيح وغرس بذور الوطنية الصحيحة، وأول مؤسس لنوادى العلم والأدب، وجمعيات التربية والتعليم».

وقد حظيت أفكار ابن باديس بانتشار واسع، وأصبحت لها مكانتها فى نفوس محبيه، ووقعها المبرح فى نفوس أعدائه قال: «مكدولند» عن الغزالى إنه «يضرب الفلاسفة على ظهورهم وأفخاذهم، ويصوب أسلحتهم إليهم فيفتك بهم» وهو حكم لنا أن نطلقه على ابن باديس، وإن كان لسوء الحظ أن خصومه ليسوا فلاسفة، وإذا كان ابن باديس قد انتهى من الحياة كشخص يسعى ويعيش؛ فإنه مكث بأفكاره وأعماله حيا.

يقول أحمد أمين فى كتابه فيض الخاطر «سيقدر التاريخ الأدباء تقديرا آخر غير التقدير الماضى» لقدكان التقدير الماضى مبنيا على فخامة الأسلوب، وجمال التعبير وقدرة على البديع أما المستقبل فسيكون تقدير الأديب: ماذا صنع لأمته؟ وكيف هداها إلى الخير؟ وإلى أى حد رفع صوته ضد الظلم والفساد؟

وهو تقدير حظى به ابن باديس القائل: «لا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لبلاده».

وهوالقائل: «أيها الشعب الجزائرى، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربى: حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوحى من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك، وقوميتك. استوح الإسلام، ثم استوح تاريخك، ثم استوح قلبك. اعتمد على الله ثم على نفسك وسلام الله عليك».

* وباختصار، إن أفكار عبد الحميد بن باديس أدت دورها في حياته وقامت بمهمتها أحسن قيام، وفعلت في النفوس سابقا وما يزال لها تأثيرها، وسيبقى لها شأنها، كما أن الأجيال الواعية ستقدر ابن باديس تقديرا عميقا كرجل عاش للجزائر، من أجل إصلاح شعب وأمة، وتربية جيل؛ فكان الرجل المثالي في نكران الذات مما يجعله بحق يستحق الثناء والخلود.

نسأل الله - جل في علاه - أن يجعل أعمالنا وأقوالنا حسبة لوجهه سبحانه وتعالى، وخدمة للإسلام وللمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

دكتور: محمد بهي الدين سالم

مصادر البحث

* القرآن الكريم .

* المنتخب فى التفسير ـ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة .

* كتب الحديث . * كتب الأعلام . * الموسوعة الإسلامية .

* جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها فى الحركة الوطنية الجزائرية ـ مازن صلاح حامد مطبقانى ـ دار القلم دمشق ـ ط الأولى ١٩٨٨م .

* عبد الحميد بن باديس ـ رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة .
د . محمد فتحى عثمان ـ دار القلم للنشر ـ الكويت ط الأولى ١٩٨٧م .

* نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر .
د . عبد الملك مرتاض ـ الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر ـ ١٩٦٩م .

* مجلة الشهاب ـ أعداد متعددة .

* البصائر (جريدة أسبوعية ـ وهى مجموعة ثلاث سنوات (٤٧ـ ٤٩) .

* هذه هى الجزائر ـ أحمد توفيق المدنى ـ القاهرة ١٩٥٩ م .

* تاريخ الأدب الجزائرى ـ محمد التمار ـ الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر .

* انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ـ د . حسن إبراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٥٧ م

* تراث ابن باديس ـ إعداد عمار الطالبى ـ شركة مرازقة للطبع والنشر ـ الجزائر ١٩٦٨م .

* تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ـ مبارك الميلى ـ ط النهضة الجزائرية ١٩٦٣ م .

* عيون البصائر - محمد البشير الإبراهيمى - دار المعارف مصر ١٩٥٢م
* مجلة الجيش الجزائرية - أعداد مختلفة .
* الشعر الجزائرى - صالح خرفى - الشركة الوطنية للنشر - الجزائر ١٩٧٠ م .
* وقفات ونبضات - محمد الصالح صديق - الشركة الوطنية - الجزائر ١٩٧٢ م .
* المحاضرات المغربيات - محمد الفاضل بن عاشور - الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م .
* فصول فى النقد الأدبى الجزائرى الحديث - د. محمد مصايف - الشركة الوطنية للنشر - الجزائر ١٩٧٢ م .
* ديوان محمد العيد محمد على خليفة - الشركة الوطنية للنشر بالجزائر - مطبعة البعث قسنطينة ١٩٦٧ م .
* ديوان سعيد المندايس - محمد بكوشة - الشركة الوطنية للنشر - الجزائر ١٩٦٨ م .
* الأدب الجزائرى المعاصر - د. سعاد محمد خضر - المطبعة العصرية - بيروت ١٩٦٧م .
* الجزائر فى مرآة التاريخ - عبد الله شريط - محمد الميلى - مطبعة البعث قسنطينة الجزائر - ١٩٦٥م .
* كتب وشخصيات - د. أبو العيد دودو - الشركة الوطنية للنشر الجزائر ١٩٧٠م .
* تاريخ الصحافة فى الجزائر - الزبير سيف الإسلام - الشركة الوطنية للنشر - الجزائر ١٩٧١م .
* تراجم الرجال - فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين - جمع وتحقيق على رضا التونسى - ط المطبعة التعاونية - تونس ١٩٧٢م
* جغرافية الجزائر - حليمى عبد القادر على - ط الثانية - ١٩٦٨ م - مطبعة الإنشاء - دمشق .
* الجزائر - فليب رفلة - القاهرة ١٩٦٠م .
* الجزائر - يوسف الجزايرلى - من أبحاث المؤتمر العربى المنعقد بالقاهرة ١٩٦٢م .

المحتويـــات

الصفحة

رقم الإيداع ١٠٥٧٨/ ٩٩
الترقيم الدولى 7- 0560 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)